

والپولا راهولا

بھگوا

پراچین ہندو مت کی بنیادی تصانیف



ترجمہ: یوسف شلباشام



تم اعادة نشر الكتاب كملف PDF

برعاية الاستاذ شمس المحسن

صاحب موقع

<http://www.alhqiqa.com>

أستاذ في الكوليج دي فرانس مدير الدراسات
البوذية في مدرسة الدراسات العليا

إليك دفاعاً عن البوذية صممه فكر حديث جريء هو فكر واحد من ممثلي البوذية الأكثر كفاءة والأكثر استنارة. فقد تلقى المبجل راهولا، حسب كل القواعد، تكوينه التقليدي كراهب بوذي في سيلان، وتقلد مناصب سامية في واحد من المعاهد الرئيسية الرهبانية في هذه الجزيرة التي ازدهرت فيها «الشريعة الصالحة» منذ زمن آسوكا، وحافظت على كل حيوياتها حتى أيامنا. وما أن تغذى بالتقليد حتى حرص، في ذلك الزمن الذي وضعت فيه كل التقاليد موضع التساؤل، على أن يقارنه مع فكر العلم الحديث وطرائقه فانتسب إلى جامعة سيلان. وفيها حصل على شهادتي البكالوريوس في الفنون والدكتوراه في الفلسفة في أطروحة متبحرة جداً عن تاريخ البوذية في سيلان. وفي بعثة جامعية إلى الهند أصبح على احتكاك مع معتنقي «أداة النقل الكبرى»، وهي ذلك الشكل من البوذية السائدة في الشرق الأقصى بدءاً من التبت، فرغب في أن يطلع على النصوص التيببتية والصينية لتوسيع نزعته إلى توحيد المذاهب، ومنحنا الشرف في مقدمة إلى جامعة باريس من أجل تحضير دراسة عن أسانغا، فيلسوف «أداة النقل الكبرى»، الشهير الذي عاش في شمال غربي الهند في القرن الرابع من عصرنا، والذي لا يمكن الحصول على مؤلفاته الرئيسية إلا في ترجماتها التيببتية والصينية. وها هو ذا يقضي بيننا ثماني سنوات يرتدي خلالها ثوبه الأصفر

العنوان الأصلي للكتاب:

L'ENSEIGNEMENT

DU BOUDDHA

D'APRES LES TEXTES LES PLUS ANCIENS

(أي ثوب الرهبان البوذيين) ويستنشق هواء الغرب، باحثاً في أغلب الظن، في مرآتنا القديمة المضطربة، عن انعكاس عالمي للدين الذي هو دينه.

إن الكتاب الذي أبدى لي رغبته بأن أقدمه للجمهور الغربي هو عرض رائع ومقبول من الجميع للمبادئ الرئيسية للبوذية كما وجدت في أقدم النصوص التي تعرف باللغة السنسكريتية بـ «السنة أو التقليد» AGAMA وباللغة البالية «الجسم القانوني» NIKAYA، وهي التي يرجع إليها المبجل راهولا دائماً وربما حصراً. وسلطان هذه النصوص معترف به بشكل إجماعي من كل المدارس البوذية التي كانت وستبقى عديدة، ولكنها لاتحيد عن هذه النصوص إلا وهي عازمة على تفسير أفكارها الكامنة وراء الحرف. وقد استطاع هذا التفسير أن يتنوع أثناء انتشار البوذية خلال القرون والمساحات الواسعة. وقد اتخذت هذه العقيدة أو «القانون الصالح» أكثر من مظهر، ولكن هذه البوذية الإنسانية العقلانية السقراطية في بعض نواحيها والإنجيلية في نواح أخرى، أو أيضاً تكاد تكون علمية، إنما تستند على الكثير من الشواهد المخطوطة الموثوقة التي لم يكن على المبجل راهولا إلا أن يتركها تتكلم.

والتفسيرات التي أضافها إلى هذه الاستشهادات والتي هي دائماً صحيحة ودقيقة هي كذلك واضحة وبسيطة ومباشرة ومعصومة من كل تحذلق وتكلف، ولكن بعضها يمكن أن يخضع للنقاش، كما فعل عندما أراد أن يجد في المصادر البالية كل مبادئ «أداة النقل الكبرى» (أي بوذية الماهايانا المنتشرة في التبت والصين واليابان)، ولكن إلفته مع هذه المصادر تسمح له أن يأتي بجديد في هذا الشأن. فهو يتوجه إلى الإنسان الحديث، ولكنه يحتفظ بإلحاحه على التقاربات التي أشار إليها هنا وهناك والتي يمكنها أن تكون ناتجة عن بعض تيارات العالم المعاصر، كالاشتراكية والإلحادية والوجودية وعلم التحليل النفسي. وعلى القارئ أن يحكم على الحداثة وإمكانات الاقتباس لدى عقيدة عرضها في هذا الكتاب عن «الدين الصحيح» وهي في باكورة إخصابها.

مدخل

نشاهد اليوم في العالم كله اهتماماً متزايداً بالبوذية. فقد تشكلت جمعيات وجماعات بحث، وظهرت كمية من الكتب المكرسة لتعاليم بوذا. ويمكننا مع ذلك أن نأسف لأن معظم هذه المؤلفات، سواء كتب المؤلفين غير المؤهلين ولا الأكفاء، أو أولئك الذين يعالجون موضوعهم بأفكار مسبقة مأخوذة من ديانات أخرى، فهؤلاء مسوقون إلى تفسيرات خاطئة وعروض غير أمينة. وهكذا وجد أستاذ للديانات المقارنة كتب حديثاً كتاباً عن البوذية قدم فيه أناندا تلميذ بوذا المخلص الذي كان راهباً (بهيكهو) على أنه علماني!.. ويستطيع القارئ أن يتخيل بأية صفة يمكن أن تكون الصورة التي تعطيها مثل هذه المؤلفات عن البوذية.

لقد حاولت في هذا الكتاب الصغير أن أتوجه قبل كل شيء إلى القارئ المثقف الذي لا يملك معرفة خاصة عن الموضوع، فقد يكون رغباً في معرفة ما علمه بوذا في الواقع. وفي نيتي أن أجتهد في إعطاء عرض مخلص ودقيق ومختصر وبسيط ومباشر ما أمكنني ذلك مستمد من كلام بوذا نفسه، كما نُقل إلينا في «التيبيتاكا»، وهي مجموعة النصوص المكتوبة باللغة البالية القديمة التي أجمع الباحثون على اعتبارها السجلات الأقدم عن تعاليم بوذا. وقد استعرت توثيق هذا العمل واستشهاداته مباشرة من هذه النصوص الأصلية. وفي بعض الأماكن فقط رجعت إلى كتابات متأخرة.

لقد فكرت كذلك بالقارئ الذي قد يُريد، بسبب حصوله على بعض المعرفة عن تعاليم بوذا، أن يعمّق هذه المعرفة. وبينت من أجل هذه الغاية، سواء في صلب الكتاب أو في معجم بسيط في آخره، المصطلحات الرئيسية في اللغة الباليّة، كما أنني أعطيت في أسفل الصفحات مصادر النصوص الأصلية.

في هذا العمل واجهت صعوبات مختلفة، إذ حاولت أن أتجنب الإفراط في التقنية والإفراط في الابتذال والتعميم في الوقت نفسه. وأن أقدم للقارئ الغربي الحالي عرضاً مفهوماً يمكنه أن يفيد منه دون أن أضحي مع ذلك بشيء من جوهر خطابات بوذا أو من شكلها. وعندما كنت أكتب هذا الكتاب كانت النصوص القديمة حاضرة على الدوام في ذاكرتي. وقد حافظت بترٍ وعزم على المترادفات والتكرارات التي تميز كلام بوذا كما وصلت إلينا عبر السّنة الشفهية. وهكذا سيكون لدى القارئ فكرة عن الشكل الذي كان يستعمله المعلم^(*). ومع محافظتي على اتباع النصوص الأصلية على أكثر ما يمكن من القرب، فقد جهدت على أن أجعل ترجماتي لها ميسرة ومقروءة.

ولكن ثمة نقطة إذا تجاوزها المرء يتعرض في بحثه عن البساطة لأن يُضَيّع المعنى الخاص الذي أراد بوذا نشره. وعلى أساس من التزامي بعنوان الكتاب «تعاليم بوذا» فقد فكرت أن من الضروري أن آتي بكلام المعلم نفسه والوجه التي استعمله بها أكثر من عنايتي بأن أقدمه في ترجمة تهدف إلى تسهيل فهمه وتشوه معناه.

لقد عالجت في هذا الكتاب، تقريباً، كل ما هو مقبول بوجه عام لأن يكون مكوناً لتعاليم بوذا الجوهرية. وذلك يشمل المبادئ الأربعة للحقائق النبيلة، والصراط الثماني النبيل، والمجموعات الخمس، والكارما، والبعث، والإنتاج المشروط، ومبدأ «اللذات». ومبدأ (بناء

(*) سيظهر هذا التكرار في كل الاستشهادات التي ترد بكلام بوذا نفسه. المترجم.

الانتباه). وسيصادف القارئ طبعاً في المناقشة تعابير قد لا تكون مألوفة لدى القارئ الغربي، فأنا أرجوه إذن، إذا كان الموضوع يهمه، أن يقرأ في بداية الأمر الفصل الأساسي، ثم ينتقل منه إلى الفصول الخامس والسابع والثامن ليعود بعد ذلك إلى الفصول الثاني والثالث والرابع والسادس، وذلك عندما يصبح المعنى العام أكثر وضوحاً وأكثر بداهة. وقد لا يكون من الممكن كتابة كتاب عن تعاليم بوذا دون معالجة المبادئ التي تتفق الثيراقادا والماهايانا على قبولها على أنها أساسية في طريقة تفكير كل واحدة منهما.

إن عبارة «ثيراقادا» التي تسمى كذلك «الهيانيانا» و«واسطة النقل الصغيرة» PETIT VEHICULE، لم تعد الآن مستعملة في أوساط الخبراء والمطلعين الذين يترجمونها «مدرسة القدماء» (THERA)، ويترجمون «الماهايانا» بـ «واسطة النقل الكبيرة» GRAND VEHICULE. وتدل هاتان العبارتان على الشكليات الرئيسيتين من البوذية اللذين نصادفهما الآن في العالم المعاصر. وتعتبر الثيراقادا البوذية الأصلية المتشددة ORTHODOXIE، وهي تنتشر في سيلان (سيريلانكا) وبريطانيا وتايلاند وكمبوديا ولاوس وشيتاغونغ في باكستان الشرقية (بنغلاديش)، بينما تنتشر الماهايانا (التي تطورت بعد ذلك بقليل) في البلاد البوذية الأخرى كالصين واليابان والتبت ومنغوليا وغيرها. وهناك بعض الفروق بين هاتين المدرستين وخاصة فيما يتعلق بالمعتقدات والممارسات والرهبانيات، أما في التعاليم الأكثر أهمية والمعروضة هنا في هذا الكتاب فإن الثيراقادا والماهايانا متفقتان.

وقد خصصت هذه الطبعة الفرنسية بملحق فيه مختارات صغيرة ترجمتها عن النصوص الباليّة الأصلية لإفادة أولئك الذين قد يشاؤون قراءة بعض خطب بوذا في شكلها الأصلي (وتكراراتها المعتادة).

وبقي علي أن أعبر عن عميق عرفاني بالجميل للسيد بول

ديمييفيل أستاذي في باريس الذي وجد عن طيب خاطر من الوقت، رغم برنامجه المثلث جداً، لكي يعتني بمخطوطة الكتاب ويقدم تصويبات واقتراحات هامة، وأن يشرف هذا الكتاب الصغير بأن يكتب، بناء على طلبي، مقدمة لطيفة وثرية، وأنا عاجز عن شكره بما فيه الكفاية.

وعلي أن أشكر الأستاذ ي.ف.ك لودفيغ الذي دعاني لأكتب هذا الكتاب أصلاً باللغة الإنكليزية، وعن المساعدة الذي قدمها لي والنفع الذي حصلت عليه والاقتراحات التي قدمها ولاهتمامه بقراءة مخطوطة الكتاب. كما أنني مدين بالعرفان للآنسة ماريان موهن التي تصفحت المخطوطة الإنكليزية وقدمت بعض الملاحظات القيمة. وأخيراً أريد أن أعبر عن شكري الحار للسيد ريني مارك، والسيد جان برتران بوكاندي، والآنسة ميريل بينوا الذين ساعدوني بأشكال عديدة عند إعدادي للنص الفرنسي.

و. راهولا

بوذا

بوذا الذي كان اسمه الشخصي هو سيدهاتّا (سدهارتا في السنسكريتية) واسم عائلته غوتاما عاش في شمالي الهند في القرن السادس ق.م. أبوه سودهودانا كان يحكم مملكة ساكيا في نيبال الحالية. وأمه هي الملكة مايا. وبحسب العادة في عصره تزوج صغير السن جداً في السادسة عشرة من عمره من أميرة صغيرة السن جميلة وموهوبة اسمها ياسودهارا. الأمير الفتى عاش في قصره محروماً من كل ترف وضع تحت تصرفه. ولكنه عزم فجأة بعد أن واجهته حقيقة الحياة وآلام البشرية أن يجد الحل للخروج من هذا الألم العالمي. وفي سن التاسعة والعشرين، بعد قليل من ولادة ابنه الوحيد راهولا، هجر مملكته وأصبح ناسكاً يبحث عن هذا الحل.

خلال ستة أعوام هام الناسك غوتاما في وادي الغانج يلتقي بالمعلمين الدينيين المشهورين، يدرس مناهجهم وطرائقهم ويخضع نفسه لممارسات زهد عنيفة قاسية. لم تشبع حاجته هذه المناهج والطرائق، فتخلّى إذن عن كل هذه الأديان التقليدية وطرائقها وتابع مسيرته إلى الأمام. وهكذا في إحدى الأمسيات، وهو يجلس تحت شجرة (عرفت منذ ذلك الوقت بشجرة الحكمة)، على شاطئ نهر نيراتجارا (قرب غايا في بيهار الحالية)، وكان له من العمر خمسة

وثلاثون عاماً، أدركت غوتاما اليقظة، ومنذئذ عُرف باسم بوذا «اليقظ».

بعد يقظته ألقى غوتاما بوذا أولى مواعظه على فريق من خمسة نساك هم رفاقه الأوائل في حديقة الغزلان في إيزيباتانا قرب بيناريس، ومنذ ذلك الوقت، وخلال خمسة وأربعين عاماً قام بتعليم كل الطبقات من رجال ونساء - ملوكاً وفلاحين وبراهمانيين ومن خارج الطبقات، أصحاب الأموال وشحاذين، متدينين ورجال عصابات دون أن يقوم بأصغر تمييز بينهم. لم يكن يعترف بالفروق الطبقيّة أو الزمر الاجتماعيّة، والطريق الذي بشر به كان مفتوحاً أمام كل الرجال والنساء المستعدين لفهمه واتباعه.

في سن الثمانين توفي بوذا في كوسينارا (في أوتار براديش الحالية).

وتنتشر البوذية اليوم في سيريلانكا وبرمانيا وتايلاند وكمبوديا ولاوس وفيتنام والتبت والصين واليابان ومنغوليا وكوريا وتايوان، وبعض مناطق من الهند وباكستان وفي نيبال وكذلك في الاتحاد السوفياتي. وعدد البوذيين في العالم يتجاوز الخمسمئة مليون.

الحالة الذهنية البوذية

كان بوذا بين مؤسسي الديانات (إذا جاز لنا أن نسميه مؤسس ديانة بالمعنى الشعبي للمصطلح) المعلم الوحيد الذي لم يدّع أنه شيء آخر غير كائن إنساني خالص وبسيط. المعلمون الآخرون كانوا تجسيدات إلهية أو قالوا عن أنفسهم إنهم ملهون من الله. أما بوذا فلم يكن كائناً بشرياً وحسب، بل إنه لم يدّع بأنه ألهم من إله أو من قدرة خارجية. فقد عزا إنجازاته وما اكتسبه وأتمه إلى المجهود الإنساني وحده وإلى الذكاء الإنساني وحده. إن رجلاً، رجلاً وحسب، يمكنه أن يصبح بوذا. كل واحد يملك في ذاته إمكانية أن يصبح ذلك إذا أراد وإذا بذل في سبيله الجهد. ونحن نستطيع أن نسمي بوذا إنساناً مميزاً. فهو من الكمال في «إنسانيته» بحيث يُنظر إليه في الديانة الشعبية على أنه يكاد يكون «فوق البشر».

إن الحالة الإنسانية سامية بحسب البوذية. فالإنسان سيد نفسه وليس من كائن أعلى منه، ولا من قوة تقيم فوقه وتتحكم بمصيره.

«المرء ملجأ نفسه، فمن غيره يستطيع أن يكون ملجأ له؟» قال بوذا. حض تلاميذه على أن «يكونوا ملجأ أنفسهم» وألا يبحثوا أبداً عن ملجأ أو مساعدة من آخر. كان يعلم ويشجع ويحث كل واحد على أن يطور نفسه وأن يعمل بحسب رأيه الحر، لأن الإنسان يملك القدرة بجهد الشخص وذكائه على أن يتحرر من كل عبودية. لقد قال

بوذا: «عليكم أن تقوموا بعملكم بأنفسكم، فالتأثاغاتا (أي الذين اكتشفوا الحقيقة) يدلونكم على الطريق». وإذا وجب علينا أن نطلق على بوذا اسم «المنقذ» فذلك لأنه بهذا المعنى اكتشف ودل على «الدرب» الذي يقود إلى التحرر، إلى «النيرفانا»؛ وعلينا نحن أن نسلك هذا الدرب.

بحسب هذا المبدأ من المسؤولية الشخصية منح بوذا كل الحرية لتلاميذه. في (المهابارينييانا - سوتّا) قال بوذا إنه لم يفكر قط أن يقود «السانغا» (نظاماً رهبانياً) ولا أراد أن تكون السانغا مرتبطة به. وقال إنه ليس من مذهب باطني في تعليمه، وإنه ما من شيء مخبأ «في قبضة المعلم المغلقة»، وبعبارة أخرى «ما من شيء احتياطي».

إن حرية الفكر التي أجازها بوذا لانجدها في أي مكان آخر من تاريخ الديانات. هذه الحرية ضرورية في نظره، لأن حرية الرأي في الإنسان ترتبط بفهمه الخاص للحقيقة لا بنعمة منحت له تكرماً من إله أو من أية قدرة خارجية كمكافأة على سلوك فاضل أو مطيع. مر بوذا مرةً على مدينة صغيرة اسمها كيزابوتا في مملكة كوسالا، وكان سكانها يعرفون باسم كالاما. وعندما علموا بأن بوذا موجود عندهم قاموا بزيارته وقالوا له:

«أيها السيد. إن نساكاً وبراهماناً مروا على كيزابوتا، وعرضوا مذاهبهم وعظموا من أمرها، وأدانوا مذاهب الآخرين وحقروها، ثم أتى نساك آخرون وبراهمانا عرضوا هم أيضاً بدورهم مذاهبهم الخاصة وعظموها وأدانوا مذاهب الآخرين وحقروها. أما نحن، أيها السيد، فبقينا دائماً في الشك والحيرة بين من قال الحقيقة من هؤلاء النساك والبراهمانا المحترمين وبين من كذب».

عندئذ أعطاهم بوذا هذا الرأي الوحيد في تاريخ الأديان:

«أجل أيها الكالاما. من الحق أن تكونوا في الشك والحيرة لأن

الشك قائم في موضوع هو أهل للشك. والآن أصغوا إليّ أيها الكالاما، لاتدعوا أنفسكم مساقين بروابط وعلاقات أو بتقليد أو بما سمعتموه يقال. لاتدعوا أنفسكم مساقين بسلطة النصوص الدينية ولا بالمنطق البسيط أو الاستدلال ولا بالمظاهر، ولا برغبة الاعتماد على آراء، ولا بمشابهات ممكنة، ولا بفكرة «إنه معلمنا»، ولكن أيها الكالاما عندما تعرفون بأنفسكم أن بعض الأمور ليست مناسبة (أكوسالا)، مخطئة وسيئة، عندئذ تخلوا عنها... وعندما تعرفون بأنفسكم أن بعض الأمور مناسبة (كوسالا) وصالحة، عندئذ اقبلوها واتبعوها».

كما قال بوذا للبهيكهو^(*) إن على التلميذ أن يمتحن حتى بوذا نفسه بالطريقة التي تجعله على تمام الاقتناع بالقيمة الحقيقية للمعلم الذي يتبعه.

بحسب تعاليم بوذا إن الشك هو أحد الموانع الخمسة لفهم الحقيقة الواضح وللتقدم العقلي (وفي الواقع لأي نوع من أنواع التقدم). فالشك ليس «خطيئة» لأنه ليس في البوذية أية عقيدة ثابتة ينبغي الإيمان بها، والواقع أنه ليس من «خطيئة» بحسب البوذية على الطريقة التي نسمعها في بعض الأديان، فجدور كل شر هي الجهل (أقيجّا) والنظر المخطئ.

ذهن التسامح والتفهم هذا كان منذ البداية أحد المثل السامية الأعلى في ثقافة البوذيين وحضارتهم. لذلك لانجد ولا مثلاً واحداً على الاضطهاد، ولا نقطة دم واحدة أريق في هداية الناس إلى البوذية ولا في انتشارها خلال تاريخها الطويل الذي امتد ألفين وخمسمئة عام. لقد انتشرت في جميع القارة الآسيوية وهي تعد الآن خمسمئة مليون من المريدين.

يتساءل الناس غالباً ما إذا كانت البوذية ديناً أم فلسفة. لايهم

(*) البهيكهو: هم الرهبان تلاميذ بوذا.

ماذا تسمى. فالبودية تبقى ما هي عليه مهما كانت البطاقة التي نلصقها عليها، إذ أن البطاقة لا أهمية لها. وبطاقة «البودية» نفسها التي نلصقها على تعاليم بوذا ليس لها أهمية كبيرة فالاسم الذي يطلق عليها ليس هو الجوهرى.

«ما الذي يوجد في الاسم؟ فالزهرة التي نسميها وردة تطلق الرائحة الزكية نفسها مهما كان اسمها».

ليس للحقيقة بطاقة. إنها ليست بودية ولا مسيحية ولا هندوسية ولا مسلمة، الحقيقة ليست احتكاراً لأحد. والبطاقات التي تلصق على الشيع والأديان ليست إلا عائقاً أمام التفهم الحر للحقيقة، وهي تدخل في عقل الناس أحكاماً مسبقة مسيئة.

إن هذا حقيقي ليس في الميدان الفكري والروحي وحسب، بل كذلك في ميدان العلاقات الإنسانية. فعندما نصادف، على سبيل المثال، رجلاً لا ننظر إليه كفر من بني الإنسان، بل نضع عليه بطاقة تدل عليه كإنكليزي أو فرنسي أو ألماني أو أمريكي ونضفي عليه كل الأحكام المسبقة التي اجتمعت في ذهننا عن هذه البطاقة، وقد يكون هذا الرجل المسكين منزهاً تماماً عن كل ما نسبنا إليه وحملناه من أحكام.

الناس يحبون كثيراً التسميات التمييزية لدرجة أنهم يذهبون حتى إلى إلصاقها بصفات ومشاعر إنسانية مشتركة بين جميع الناس. وهكذا يتحدثون على سبيل المثال عن أنواع (ماركات) من الإحسان، كالإحسان البوذي والإحسان المسيحي، ويحتقرون الأنواع الأخرى من الإحسان. ولكن الإحسان لا يمكن ربطه بشيعة أو مذهب لأن الإحسان هو الإحسان إذا كان إحساناً. فهو ليس مسيحياً ولا بوذياً ولا هندوسياً ولا مسلماً. فمحبة الأم لابنها ليست بودية ولا مسيحية ولا أي نوع من أنواع الصفات الأخرى. إنها المحبة الأمومية. إن الصفات الحسنة أو النقائص، أو المشاعر البشرية من محبة وإحسان وشفقة وتسامح وصبر وصداقة ورغبة

وكراهية وإيذاء وجهل وغرور... ليس لها بطاقة مذهب أو شيعة ولا تنتسب إلى ديانة معينة. إن أهلية المرء أو عدم أهليته لصفة حسنة أو لنقيصة لا تزيد ولا تنقص بسبب انتمائه إلى ديانة خاصة أو عدم انتمائه إلى أي دين.

لا يهم الباحث عن الحقيقة أن يعرف من أين تأتي إحدى الأفكار، فأصل الفكرة وتطورها وانتشارها كل ذلك من عمل المؤرخ. والواقع أننا من أجل فهم الحقيقة ليس من الضرورة أن نعرف ما إذا كان التعليم يأتي من بوذا أو من شخص آخر، فالجوهري هو أن نرى الشيء وأن نفهمه، وهناك قصة مهمة توضح هذه الفكرة:

مرّ بوذا في إحدى المرات ليلاً على صانع فخار فوجد عنده ناسكاً شاباً وصل قبله. لم يكن أحدهما يعرف الآخر. وقد لاحظ بوذا تصرف هذا الناسك وفكر في نفسه: «حسنة هي تصرفات هذا الشاب، وقد يكون حسناً أن أسأله». عندئذ سأله بوذا: «أيها الناسك، باسم من تركت منزلك؟ من هو معلمك؟ على يد من أحببت عقيدتك؟».

- أيها الصديق، أجاب الشاب، هناك الناسك غوتاما من أبناء الساكيا ترك عائلة الساكيا ليصبح ناسكاً. عنه انتشرت سمعة عالية وبحسبها هو «مستنير» (أرامانت)، مستنير استنارة كاملة. باسم «صاحب الغبطة BIENHEUREUX» هذا أصبحت ناسكاً. هو معلمي وأحب عقيدته.

- أين يعيش في هذه اللحظة صاحب الغبطة هذا، المستنير تمام الاستنارة؟

- يوجد في البلاد الشمالية، أيها الصديق، مدينة اسمها ساقاتي، هناك يعيش صاحب الغبطة المستنير تمام الاستنارة في هذه اللحظة.

- أسبق لك أن رأيت صاحب الغبطة هذا، وهل تتعرف عليه إذا رأيته؟

- لم أر قط صاحب الغبطة هذا ولا أتعرف عليه إذا رأيته.

وفهم بوذا أن هذا الفتى المجهول ترك باسمه منزله وأصبح ناسكاً. ولكنه قال دون أن يكشف عن هويته: أيها الناسك، سأعلمك العقيدة. استمع إليّ بإصغاء، وأنا سأتكلم.

- حسن جداً يا صديقي، قال الفتى موافقاً.

عندئذ ألقى بوذا من أجل الفتى خطاباً مرموقاً شارحاً له الحقيقة، وسنقدم فحوى هذا الخطاب فيما بعد^(*).

بعد هذا الخطاب فقط فهم الفتى الناسك، واسمه بوكوساتي، أن من يكلمه هو بوذا بذاته. عندئذ نهض ووقف أمام بوذا وسجد أمام المعلم واعتذر من أنه، لجهله، دعاه بالصديق. وأخيراً رجا بوذا أن يعطيه السيامة وأن يقبله في نظام السانغا الرهباني.

فسأله بوذا إذا كان لديه قصعة للصدقات وثياب الرهبانية (ذلك لأن الناسك يجب أن يملك ثلاثة أثواب وقصعة للصدقات). ولما أجاب الناسك بالنفي قال بوذا إن التاغاتا لا يعطون السيامة إلى أحد ما لم يملك قصعة صدقات وثلاثة أثواب، ولكنه لسوء الحظ تعرض لهجوم من بقرة ومات.

عندما وصل هذا النبأ لبوذا فيما بعد، أعلن أن بوكوساتي كان حكيماً رأى الحقيقة، ووصل إلى الحالة ما قبل الأخيرة من إدراك النيرقانا، وأنه ولد في مجال سيصبح فيه أراهانت^(**) لكي يموت في النهاية ولا يعود أبداً إلى هذا العالم.

وفي هذه القصة يبدو واضحاً أن بوكوساتي عندما أصغى إلى بوذا وفهم تعاليمه لم يعرف من هو الذي يتكلم ولا ممن أتت هذه التعاليم، ولكنه رأى الحقيقة بدون بطاقة تعريف. إذا كان الدواء

(*) سيرد نص الخطاب في الفصل الذي يتحدث عن الحقيقة النبيلة الثالثة.

(**) الأراهانت شخص حرر نفسه من كل رجس وقذارة كالرغبة والبغضاء والجهل والعجرفة... وأنه بلغ المرحلة الرابعة وهي أعلى المراحل في فهم النيرقانا، وأنه ممتلئ بالحكمة والصفات النبيلة.

صالحاً فإن المريض سيشفى، ولا يهم من الذي حضره ولا من أين أتى.

تكاد كل الأديان تقوم على الإيمان - إيمان أعمى على ما يبدو - أما في البوذية فالتشديد يقع على «رأى، عرف، فهم» لا على معتقد أو إيمان. في النصوص البوذية نجد كلمة «سادها» التي تترجم بوجه عام بعقيدة أو إيمان. ولكن سادها في الواقع ليست العقيدة كما هي في مفهوم الأديان، بل هي بالأحرى نوع من «الثقة» المتولدة عن الاقتناع. في البوذية الشعبية وكذلك في الاستعمال العادي الوارد في النصوص تحمل كلمة «سادها» - ويجب أن نعترف بذلك - عنصراً من الإيمان بالمعنى الذي يعني الإخلاص لبوذا والتعاليم والنظام.

بحسب أسانغا، وهو فيلسوف بوذي عاش في القرن الرابع للميلاد، كلمة «سادها» (أو سرادها كما تلفظ في السنسكريتية) تتضمن ثلاثة مظاهر: 1 - الاقتناع الثابت الكامل بأن أمراً ما موجود. 2 - الفرح الصافي من الخصال الحسنة. 3 - الأمل أو التمني في امتلاك القدرة على إنجاز أمر مراد.

ومهما كان أمر المعتقد أو الإيمان، كما هو مفهوم في الديانات عموماً، فليس له في البوذية إلا مكان ضئيل.

مسألة الإيمان تُطرح عند فقدان الرؤية - الرؤية بكل معاني الكلمة - ففي اللحظة التي ترى فيها فإن الإيمان يضمحل. إذا قلت لك إنني أملك جوهرة مخبأة في يدي المغلقة فإن مسألة الإيمان تُطرح لأنك لا ترى الجوهرة بنفسك، ولكن إذا فتحت يدي وأريتك الجوهرة فأنت تراها عندئذ بنفسك ولا يعود ثمة مجال للإيمان. وهذا هو ما قيل في النصوص القديمة: «أن تفهم هو كما لو أنك ترى جوهرة (أو ثمرة إهليلج) في راحة اليد».

تلميذ لبوذا اسمه موزيلا قال لراهب آخر: «أيها الصديق سافيتا، بدون إخلاص أو عقيدة أو إيمان، بدون نزوع أو ميل،

بدون رواية أو تقليد، بدون تقدير للأسباب الظاهرية، بدون أن أكتفي بتضارب الآراء، أعرف وأرى أن الكف عن الصيرورة هو النيرقانا».

فقال بوذا: «أيها البهيكهو. قلت إن تدمير الرجس والأقدار هو مهمة شخص يعرف ويرى لاهمة شخص لايعرف ولايرى».

المسألة دائماً مسألة معرفة ورؤية لا مسألة اعتقاد. تعاليم بوذا تدعوك لأن «تأتي وترى» لا لأن تأتي وتؤمن.

إن التعابير المستعملة في النصوص البوذية التي تدل على أن شخصاً فهم الحقيقة هي التالية: «عين الحقيقة بدون غبار ولا لوث. إنها مفتوحة». «رأى الحقيقة يعني أنه تجاوز الشك، أصبح بلا تردد». «هكذا بحكمة حقة يرى الأمر كما هو موجود». وإشارة منه إلى يقظته الخاصة عبّر بوذا كما يلي: «العين وُلدت، المعرفة وُلدت، الحكمة وُلدت، العلم وُلد». الأمر دائماً أن ترى عن معرفة أو حكمة لا أن تعتقد عن إيمان.

عندما يكتفي امرؤ بتعاليم بوذا يمدح السيد بقوله إن هذه التعاليم هي «كما لو أن المرء قوّم ما هو مقلوب أو كشف ما هو مستور، أو أظهر الدرب لرجل تائه، أو أتى بمصباح في الظلام من أجل أن يرى من لهم عيون قادرة الأشياء التي تحيط بهم».

هذه التعابير تدل بوضوح على أن بوذا فتح أعين الناس ودعاهم لأن يروا بحرية، ولم يعصب أعينهم وهو يقودهم إلى الإيمان.

وقد تم تقدير ذلك أكثر فأكثر في زمن كانت فيه الأرثوذكسية البراهمانية تلح بطريقة غير متسامحة على الإيمان وعلى قبول سنّتها وسلطانها، وكأنها تكشف عن الحقيقة الوحيدة وبدون نقاش، تلك الحقيقة التي لايسمح لأحد أن يضعها موضع تساؤل.

مجموعة من البراهمان العلماء المشهورين قدموا مرة للقاء

بوذا وأقاموا نقاشاً طويلاً معه. أحدهم، وهو براهمان فتي في السادسة عشرة من العمر اسمه كاباثيكا ويعتبره الجميع ذا عقل استثنائي لماح طرح على بوذا هذا السؤال: «أيها المبجل غوتاما. هنالك نصوص مقدسة قديمة عن البراهمان تنتقل من جيل إلى جيل عن طريق رواية شفوية غير منقطعة. فيما يختص بهذه النصوص توصل البراهمانيون إلى نتيجة مطلقة هي: (أن هذه وحدها هي الحقيقة وكل ما عداها باطل). والآن ماذا يقول في ذلك المبجل غوتاما؟».

بوذا سأل: «بين البراهمان، هل يوجد براهمان واحد يدّعي أنه - شخصياً - عرف ورأى أن «هذه وحدها هي الحقيقة وكل ما عداها باطل»؟

الشاب كان صريحاً وقال «كلا».

- إذن هل يوجد معلم واحد، أو معلم واحد من معلمي البراهمان، بالعودة إلى الجيل السابع، أو حتى واحد من هؤلاء المؤلفين الأصليين لهذه النصوص يدّعي أنه عرف ورأى أن «هذه وحدها هي الحقيقة وكل ما عداها باطل»؟

- كلا.

- إذن فالأمر مثل خيط من الرجال العميان كل واحد منهم يتشبّث بمن قبله، فالأول لم ير، والأوسط لم ير، والأخير لم ير هو أيضاً، وهكذا يبدو أن حالة البراهمان هي مثل حالة هذا الخيط من الرجال العميان.

وعندئذ أعطى بوذا لهذه الجماعة من البراهمان رأياً في غاية الأهمية: «ليس من المناسب لرجل يساند الحقيقة ويحميها أن يصل إلى نتيجة مفادها أن هذا وحده هو الحقيقة وكل ما عداها باطل».

وعندما سأل البراهمان الشاب أن يفسر هذه الفكرة عن مساندة الحقيقة وحمائتها قال بوذا: «الرجل له معتقده. فإذا قال:

هذا هو اعتقادي، حتى هنا هو يساند الحقيقة، ولكنه لا يستطيع أن يتقدم عن ذلك للوصول إلى النتيجة المطلقة وهي «تلك وحدها هي الحقيقة وكل ما عداها باطل». وبعبارة أخرى: إن الرجل يستطيع أن يؤمن بما يشاء، ويستطيع أن يقول: إني مؤمن بذلك. حتى هنا هو يساند الحقيقة، ولكن بما أن ذلك هو إيمانه ومعتقده فيجب عليه ألا يقول بأن ما يؤمن به هو وحده الحقيقة وكل ما عداها باطل».

وقال بوذا: «بأن يكون المرء مرتبطاً بشيء (بوجهة نظر) ويحتقر الأشياء الأخرى (وجهات نظر أخرى) على أنها أدنى، فذلك ما يسميه الحكماء رباطاً^(*)».

شرح بوذا مرة لتلامذته مبدأ العلة الفاعلة، فقالوا إنهم رأوه وفهموه. عندئذ قال: «أيها البهيكهو. حتى هذه الرؤية النقية جداً والواضحة جداً، إذا ارتبطتم بها وأحببتموها واحتفظتم بها كأنها كنز، والتصقتم بها، عندئذ لا تكونون قد فهمتم أن التعاليم إنما هي أشبه بزورق صنع لتجتازوا عليه لا لكي تلتصقوا به».

وفي مكان آخر شرح بوذا هذه الحكمة الشهيرة التي شبّه فيها تعاليمه بزورق صنع للاجتياز لا للاحتفاظ به وحمله على الظهر:

«أيها البهيكهو، أحد الرجال مسافر. وصل إلى مساحة كبيرة من الماء شاطئها المحاذي له خطر ومخيف بينما شاطئها الآخر أمين لاخطر فيه. وليس من معدية للوصول إلى الشاطئ الآخر ولا جسر للمرور من هذا الشاطئ إلى الشاطئ الآخر. ففكر الرجل: «هذه المساحة المائية واسعة والشاطئ من هذه الجهة خطر ومخيف، بينما الشاطئ الآخر أمين ولاخطر فيه، وليس ثمة من معدية للوصول إلى الشاطئ الآخر ولا جسر للمرور عليه. إذن ربما كان حسناً أن أجمع عشباً وخشباً وأغصاناً وأوراقاً وأصنع طوقاً، أجتاز بمساعدة هذا الطوف بأمان إلى الشاطئ الآخر، مستخدماً

(*) سيأتي ذكر الارتباط والارتباط كثيراً فيما يأتي من الكلام. فدع معناه هذا في ذهنك أيها القارئ. المترجم.

يديّ ورجلي». وعندئذ أيها البهيكهو جمع الرجل عشباً وخشباً وأغصاناً وأوراقاً وصنع طوقاً، وبمساعدة هذا الطوف اجتاز بأمان إلى الشاطئ الآخر مستخدماً يديه ورجليه. وبعد أن اجتاز وبلغ الشاطئ الآخر فكّر في نفسه: «هذا الطوف كان لي نجدة كبيرة. بمساعدة هذا الطوف مررت بأمان إلى الشاطئ الآخر مستخدماً يديّ ورجلي، فربما كان حسناً أن أحمل هذا الطوف على رأسي أو على ظهري إلى أي مكان أحببت أن أذهب إليه». ما رأيكم أيها البهيكهو؟ إذا تصرف على هذه الصورة هل يكون هذا الرجل قد تصرف تصرفاً مناسباً فيما يتعلق بهذا الطوف؟».

- كلا أيها السيد.

- إذن بأية طريقة يتصرف تصرفاً مناسباً فيما يتعلق بهذا الطوف؟ الآن، وبعد أن اجتاز إلى الضفة الأخرى فكر هذا الرجل: «هذا الطوف كان لي نجدة كبيرة. بمساعدة هذا الطوف مررت بأمان إلى الضفة الأخرى مستخدماً يديّ ورجلي. فربما كان حسناً أن أضع هذا الطوف على الأرض (على الضفة)، أو أن أتركه للموج وأذهب إلى حيث يحلو لي». بتصرفه بهذه الطريقة يكون الرجل قد أحسن فيما يتعلق بالطوف.

وعلى غرار ذلك، أيها البهيكهو، علّمْتُ مبدأً شبيهاً بالطوف الذي صنع للاجتياز لا لحمله ولا للتمسك به. أنتم أيها البهيكهو، يامن فهمتم أن التعليم شبيه بالطوف، ربما كان عليكم أن تهجروا حتى الأشياء الحسنة، فما بالكم بالأشياء القبيحة أيضاً.

يتضح من هذه الحكمة أن تعاليم بوذا تهدف إلى قيادة الإنسان نحو الأمان، نحو السلام، نحو السعادة، نحو إدراك النيرقانا. كل المبدأ الذي علّمه يتجه إلى هذه الغاية. لم يقل أشياء تهدف فقط إلى إرضاء الفضول العقلي، كان معلماً عملياً ولم يعلم إلا ما يجلب للإنسان السلام والسعادة.

كان بوذا يقيم مرة في غابة سيمسابا في كوسامبي قرب (الله آباد). أخذ يضع أوراق في يده وسأل تلاميذه: «ماذا تظنون أيها

البهيكهو؟ أيها أكثر عدداً، أهي هذه الأوراق التي في يدي أم هي الأوراق الموجودة في الغابة؟

- أيها السيد. الأقل عدداً هي الموجودة في يد صاحب الغبطة. ولكن من المؤكد أن الأوراق الموجودة في غابة سيمسابا هي الأكثر وفرة.

- ومثل ذلك أيها البهيكهو، تبعاً لما أعرفه لم أقل لكم إلا القليل جداً، وما لم أقله لكم هو الأكثر. ولماذا لم أقل لكم (هذه الأشياء)؟ لأنها ليست مفيدة ولا تقود إلى النيرفانا، لذلك لم أقل لكم (هذه الأشياء).

بالنسبة لنا تافه أن نسعى - كما يحاول عبثاً بعض المتبحرين أن يفعلوا - وراء الاعتماد على ما يعرفه بوذا ولم يقله لنا.

بوذا لم يكن يهتم بمناقشة مسائل ميتافيزيكية لا فائدة منها، لأنها نظرية تأملية بحتة وتخلق مشاكل وهمية. كان يعتبرها «صحراء من الآراء». ويبدو أنه بين تلاميذه من لم يكن يقدر هذا الموقف. ولدينا مثال عن واحد من هؤلاء التلاميذ هو مالونكيابوتا الذي طرح على بوذا أسئلة كلاسيكية في مشاكل ميتافيزيكية وطلب منه الأجوبة.

ففي أحد الأيام نهض مالونكيابوتا بعد تأمل ما بعد الظهيرة، وذهب للقاء بوذا فحياه وجلس إلى جانبه، وقال:

«أيها السيد. عندما كنت وحيداً في تأملي وابتنتني هذه الفكرة: ثمة مشاكل من غير حل متروكة على جنب ومنبوذة من صاحب الغبطة. هذه المشاكل هي 1 - هل العالم خالد أو 2 - هل هو غير خالد؟ 3 - هل للعالم نهاية أو؟ 4 - أنه لانهاية له؟ 5 - والنفس هل هي الجسد نفسه أو؟ 6 - أن النفس شيء والجسد شيء آخر. 7 - التثاغاتا هل هي موجودة بعد الموت أو؟ 8 - أنها غير موجودة بعد الموت أو. 9 - هل هي في الوقت نفسه موجودة وغير موجودة بعد الموت، أو 10 - هل هي غير موجودة وفي الوقت نفسه ليست غير

موجودة بعد الموت؟ هذه المشاكل لم يشرحها لي صاحب الغبطة وهذا الوضع لا يروق لي ولا أقدره. سأذهب إلى صاحب الغبطة وسأسأله بهذه المناسبة. فإذا لم يشرح لي سأترك النظام عندئذ وسأمضي. فإذا كان صاحب الغبطة يعرف أن العالم ليس خالداً فليشرح لي إذن. وإذا كان صاحب الغبطة لا يعرف ما إذا كان العالم خالداً أم لا... الخ، عندئذ من المشروع بالنسبة لشخص لا يعرف أن يقول: أنا لا أعرف ولا أرى».

جواب بوذا على مالونكيابوتا لا بد أن يكون نافعاً للملايين من الناس الذين يضيقون في عالم اليوم وقتاً ثميناً في مسائل ميتافيزيكية من هذا النوع، ويثيرون الإزعاج والاضطراب بلا فائدة في هدوء عقلهم وراحته:

«هل قلت لك يا مالونكيابوتا قط: (تعال يا مالونكيابوتا وعش حياة تقية تحت إشرافي وسأشرح لك هذه الأسئلة)؟
- كلا أيها السيد.

- إذن يا مالونكيابوتا هل قلت لي أنت: (أيها السيد، سأعيش حياة تقية تحت إشراف صاحب الغبطة وسيسشرح لي صاحب الغبطة هذه الأسئلة؟).
- كلا أيها السيد.

- وحتى الآن يا مالونكيابوتا لا أقول لك: (تعال وعش حياة تقية تحت إشرافي وسأشرح لك هذه الأسئلة). وأنت لاتقول لي كذلك (أيها السيد، سأعيش حياة تقية تحت إشراف صاحب الغبطة وسيسشرح لي هذه الأسئلة). وفي هذه الشروط، أيها الأحق، ليس من شخص يرفض شخصاً آخر.

«يا مالونكيابوتا. إذا قال أحد الناس: (لن أعيش حياة تقية تحت إشراف صاحب الغبطة طالما أنه لن يشرح هذه الأسئلة) فإنه يمكن أن يموت دون أن تلقى هذه الأسئلة جواباً من التثاغاتا. إن

الحقائق الأربع النبيلة

الحقيقة النبيلة الأولى: دوكها

الأساسي من تعاليم بوذا متضمن في «الحقائق الأربع النبيلة» التي عرضها في أول موعظة له أمام رفاقه القدماء النساك الخمسة، في إيزيباتانا (سارنات الحديثة) قرب بيناريس. في هذه الموعظة - كما قدمت لنا في النصوص الأصلية - غرست هذه الحقائق الأربع باختصار. ولكن هذه الحقائق الأربع وجدت مشروحة بتفاصيل أكثر، وبأشكال مختلفة في أماكن أخرى عديدة من الكتابات. فإذا درسنا الحقائق الأربع النبيلة بمساعدة هذه المراجع وهذه الشروح، حصلنا على عرض حسن ودقيق بما فيه الكفاية لتعاليم بوذا الجوهرية كما استخلصت من النصوص الأصلية.

الحقائق الأربع النبيلة هي:

- 1 - دوكها^(*).
- 2 - سامودايا (ظهور دوكها أو أصلها).
- 3 - نيرودا (توقف أو انقطاع دوكها).
- 4 - ماجا MAGGA (الدرب أو الصراط الذي يقود إلى توقف دوكها).

(*) لم يشأ المؤلف أن يعطي لهذا المصطلح اسماً موازياً من اللغة الفرنسية لأسباب ذكرت فيما بعد.

الأمر تماماً يا مالونكيابوتا مثل رجل جرح بسهم مسموم جرحاً قوياً فأتى أهله وأصدقائه بجراح، فقال الرجل: (لن أدع أحداً ينزع هذا السهم قبل أن أعرف من الذي جرحني، ما إذا كان من الكشاتريّا - وهي طبقة المحاربين - أم من البراهمنا - طبقة الكهنة - أم من القايستيا (طبقة التجار والمزارعين) - أم من الشودرا (الطبقة الدنيا)، ما اسمه، ما عائلته، أهو طويل أم قصير أم ذو قامة متوسطة، من أية قرية أو مدينة أو بلدة أتى. لا أسمح بسحب هذا السهم قبل أن أعرف بأي نوع من الأقواس تم قذفي، قبل أن أعرف أي وتر تم استعماله في القوس، قبل أن أعرف أية ريشة استخدمت على السهم، قبل أن أعرف بأية طريقة رأس السهم. ومات هذا الرجل يامالونكيابوتا دون أن يعرف هذه الأمور. وكما كان الحال مع مالونكيابوتا فإن أي امرئ يقول: «لن أعيش حياة تقية تحت إشراف صاحب الغبطة قبل أن يعطيني جواباً على هذه الأسئلة من أمثال أن العالم خالد أو غير خالد... الخ» فقد يموت مع هذه الأسئلة المتروكة بلا جواب من التاغاتا».

وعندئذ شرح بوذا لمالونكيابوتا أن الحياة التقية لا ترتبط بهذه الآراء. ومهما كان الرأي الذي يمكن الحصول عليه عن هذه المشاكل، فهناك الولادة والشيخوخة والعجز والموت والتعاسة والنحيب والألم والتعب والعوز، «تلك الأمور التي أعلن توقفها (أي النيرقانا) في هذه الحياة نفسها».

«إذن يا مالونكيابوتا، ما الذي شرحت؟ لقد شرحت دوكها، ولادة دوكها، توقف دوكها، والطريق الذي يقود إلى توقف دوكها. لماذا يا مالونكيابوتا شرحت هذه الأمور؟ لأن ذلك مفيد، لأن ذلك مرتبط ارتباطاً أساسياً بالحياة التقية والروحانية، لأن ذلك يقود إلى النفور، إلى الانفصال، إلى التوقف، إلى الهدوء، إلى الاختراق العميق، إلى التحقق الكامل، إلى النيرقانا، من أجل هذا شرحتها».

والآن سنمضي للحديث عن الحقائق الأربع النبيلة التي قال بوذا إنه شرحها لمالونكيابوتا.

مرض ولا ضرورة لأي علاج، خادعاً بذلك مريضه بتطمينات خاطئة. يمكن أن نسمي أولهما بأنه متشائم والآخر متفائل. وكلا الاثنين خطران على قدم المساواة. ولكن طبيياً ثالثاً يمكنه أن يقوم بتشخيص صحيح فيفهم سبب المرض وطبيعته، ويرى بوضوح إمكانية معالجته، ويصف بشجاعة الدواء المناسب وينقذ مريضه. بوذا شبيه بهذا الطبيب، فهو الطبيب الحكيم العالم العارف لأمراض العالم.

حقاً إن الاستعمال الدارج القديم لكلمة دوکها (في السنسكريتية) يحمل معنى الألم والعذاب والوجع والشقاء، معارضةً لكلمة سوکها التي تعني السعادة والراحة والهناء، ولكن مصطلح دوکها على أنها تدل على «الحقيقة النبيلة الأولى» والتي تقدم لنا وجهة نظر بوذا، إنما يرتدي معنى أكثر عمقاً فلسفياً ويتضمن معاني أكثر اتساعاً. نقبل أن كلمة دوکها في دلالة «الحقيقة النبيلة الأولى» تتضمن بدهة المعنى الدارج للألم، ولكنها تتضمن زيادة على ذلك المفاهيم الأعماق «لعدم الكمال» و«عدم الديمومة» و«النزاع» و«الفراغ» و«عدم الجوهرية»^(*). إذن من الصعب جداً أن نجد كلمة تشمل كل ما يتضمنه مصطلح دوکها في مدلول «الحقيقة النبيلة الأولى». وهكذا قد يكون من الأفضل أن نمتنع عن ترجمتها لكي لا نتعرض لإعطائها مفهوماً خاطئاً، أو غير واف بالغرض بترجمتها بكل بساطة بكلمة «ألم» أو «معاناة».

إن السعادة والألم نسبيان. فالحياة لا يمكن أن تكون سعادة وألماً وحسب. وبوذا لا ينكر السعادة التي نقابلها في الحياة عندما نتحقق من وجود الألم. فهو، على العكس من ذلك، يقبل وجود أشكال متعددة من السعادة المادية والروحية عند العلمانيين والرهبان على السواء. وفي «الأنغوتارا - نيكايا» - وهي من المصنفات الأصلية القديمة التي تتضمن أقوال بوذا - نجد تعديداً لأشكال متنوعة من

(*) أي انعدام أن يكون أمر ما جوهرياً أو أساسياً.

الحقيقة النبيلة الأولى دوکها

الحقيقة النبيلة الأولى (دوکها - آرياً ساكاً) ترجمت بشكل عام على يد الباحثين «حقيقة الألم النبيلة»، وفُسرَت على أنها تعني أن الحياة قد لا تكون، بحسب ما يراه بوذا، إلا ألماً وعذاباً. هذه الترجمة وهذا التفسير هما غير كافيين أبداً وهما خادعان. فبموجب هذه الترجمة الضيقة والحرّة والسهولة والتفسير السطحي الذي تُوصل إليه اعتبر الكثير من الأشخاص خطأ أن البوذية مبدأ متشائم.

لنقل قبل كل شيء إن البوذية ليست متشائمة ولا متفائلة. وإذا كان لا بد من أن نعطيها صفة فإن صفة الواقعية هي التي تناسبها. فرويتها للعالم والحياة هي رؤية واقعية قطعاً. إنها تنظر إلى الأمور بشكل موضوعي (ياثابهوتام) ولا تسعى لأن تهددنا بوهم أننا نعيش في جنة خادعة. كما أنها لا تسعى أيضاً أن تخيفنا بأنواع الخطايا والمخاوف الوهمية. هي تقول لنا بطريقة موضوعية ما نحن وما العالم الذي يحيط بنا. تظهر لنا درب الحرية الكاملة، درب السلام والهدوء والسعادة.

يمكن لطبيب أن يبالغ في مرض ويتخلى عن الأمل في معالجته. وطبيب آخر يمكنه على العكس من ذلك أن يؤكد لجهله أنه ما من

السعادة كسعادة الحياة العائلية، وسعادة حياة الناسك، والذائد الحسية، وسعادة التخلي، والارتباط، والانفصال، السعادة الجسدية والسعادة العقلية... الخ. ولكن كل ذلك مدرج في الدوكها، حتى الحالات الروحية الأكثر نقاءً التي يحصل عليها المرء من ممارسة أعلى درجات التأمل والمجردة من أي ظل من الأكم بالمعنى العادي للكلمة، والموصوفة بأنها سعادة لا يخالطها شيء. وحتى حالة «الدهيانا» المتحررة من كل إحساس ممتع أو غير ممتع والتي هي ليست غير صفاء وانتباه خالص - حتى كل هذه الحالات الروحانية العالية جداً متضمنة في الدوكها. في واحد من (سوتّا الماّجهيما - نيكايا) - وهو واحد من خمسة مصنفات أصلية - قال بوذا، بعد أن امتدح السعادة الروحانية لهذه (الدهيانا)، إنها كلها «زائلة IMPERMANANTS، أي الدوكها وتوابعها. ومن المناسب أن نشير هنا بصراحة ووضوح. فهذه الحالات هي دوكها لا لأنها تحمل معنى الأكم بمعناه العادي، بل لأن «كل ما هو زائل هو دوكها».

كان بوذا واقعياً وموضوعياً. فقد قال فيما يتعلق بالحياة والملذات الحسية إن ثلاثة أمور يجب أن تكون مفهومة بوضوح: 1 - الافتتان أو التمتع. 2 - النتائج السيئة، الخطر، عدم الاكتفاء. 3 - التحرر.

بحسب ذلك، نرى بدهة أن المسألة ليست مسألة تشاؤم أو تفاؤل، بل هي أن علينا أن نحسب حساباً لملذات الحياة تماماً مثلما نحسب حساباً لآلامها وأوجاعها، وكذلك لاحتمال أن نتحرر منها لكي نفهم الحياة فهماً موضوعياً. بذلك فقط سيصبح التحرر الحقيقي ممكناً. وقد قال بوذا في هذا الموضوع:

«أيها البهيكهو. إذا لم يفهم الناسك أو البراهمانا على هذه الصورة، فهماً موضوعياً، أن متعة لذائد الحواس على أنها متعة، وأن عدم اكتفائهم على أنه عدم اكتفاء، وأن التحرر من ناحيتهم

على أنه تحرر، فإنه لا يمكن عندئذ أن يفهموا من تلقاء أنفسهم وبشكل مؤكد وكامل أن اللذة هي لذة الحواس، ولا يمكن أيضاً أن يكونوا قادرين على أن يعلموا في هذه الحالة شخصاً آخر، ولا أن يفهم هذا الشخص باتباعه تعليمهم فهماً كاملاً أن اللذة هي لذائد الحواس. ولكن، أيها البهيكهو، إذا فهم الناسك أو البراهمانا فهماً موضوعياً، وعلى هذه الطريقة، أن متعة لذائد الحواس، هي متعة، وأن عدم اكتفائهم هو عدم اكتفاء، وأن تحررهم هو تحرر، عندئذ سيكون في إمكانهم أن يفهموا من تلقاء أنفسهم وبطريقة مؤكدة وكاملة أن اللذة هي لذائد الحواس وأن يتمكنوا في هذه الحالة من تعليم شخص آخر، وأن يفهم هذا الشخص، باتباعه تعليمهم، فهماً كاملاً، لذة الحواس».

إن مفهوم دوكها يمكن أن يُنظر إليه من ثلاث وجهات نظر مختلفة:

- 1 - إن دوكها هي الأكم العادي.
- 2 - إن دوكها هي الأكم الناجم عن التغير (أو التبديل أو التحول).
- 3 - إن دوكها هي حالة مشروطة (أو ظرفية).

كل أنواع الآلام من ولادة وشيخوخة ومرض وموت واجتماع مع أشخاص منفرين، أو ارتباط بظروف غير مرضية، أو انفصال عن كائنات محبوبة، أو فقدان ظروف سارة، أو عدم الحصول على ما يبتغي، أو الأكم والنواح والعوز، وكل الأشكال المشابهة من الأكم الجسدي والعقلي مما هو مقبول على أنه ألم، كل ذلك تتضمنه دوكها باعتبارها ألماً عادياً.

أما الشعور بالسعادة أو ظرف من حياة سعيدة ليس دائماً وليس خالداً. تبدل يتدخل عاجلاً أم آجلاً، وعندما يأتي يحدث ألم، ومعاناة وتعب. هذا التعاقب هو متضمن في دوكها باعتباره ألماً ناجماً عن التغير.

من السهل أن نفهم وجهي دوكها اللذين أتينا على ذكرهما ولن

ينكرهما أحد. فهذان الوجهان من الحقيقة النبيلة الأولى هما معروفان جداً، لأن من السهل فهمهما، وهما يشكلان جزءاً من التجربة الدارجة في حياتنا اليومية.

ولكن الوجه الثالث لدوكها باعتبارها حالة مشروطة (ظرفية) فهو الوجه الفلسفي الأهم للحقيقة النبيلة الأولى، وهذا الوجه يتطلب بعض التفسيرات، ويلزمنا أن نحلل ما نسمعه من «كائن ETRE» أو «شخص (عقل) INDIVIDU» أو «أنا».

فما نطلق عليه اسم «كائن»، «شخص»، «أنا» هو فقط - بالنسبة للفلسفة البوذية - تركيبة قوى أو نشاطات جسمانية وعقلية في تبدل دائم. ويمكن قسمتها إلى خمس زمر أو مجاميع AGREGATS. فالبوذية تقول: «باختصار، هذه المجموعات الخمس للترابط هي دوكها». المهم هنا أن نفهم جيداً أن دوكها والمجاميع الخمسة ليست أشياء مختلفة. فالمجاميع الخمسة هي نفسها دوكها. وسنفهم ذلك بشكل أفضل عندما ستكون عندنا فكرة أوضح عن هذه المجاميع الخمسة التي نسمي مجموعها «كائناً». فما هي إذن؟

المجاميع الخمسة: الأول منها هو مجموعة المادة. ونعني بهذا المصطلح العناصر الأربعة الكبيرة التي نرسم إليها تقليدياً (بالتراب والماء والنار والهواء)، أي الصلابة والميوعة والحرارة والحركة، وكذلك مشتقات هذه العناصر. وتحت هذا المصطلح - أي مشتقات هذه العناصر الكبيرة - نفهم أنها الأعضاء الخمسة المادية للأحاسيس، مع معرفة خصائص العين والأنف واللسان والجسد، والأشياء التي تتعلق بها في العالم الخارجي، أي الأشكال المرئية والأصوات والروائح والطعوم والأشياء الملموسة، وكذلك النوايا والأفكار والمفاهيم التي ترتبط بمجال الأمور العقلية. فميدان المادة كله، الداخلي منه والخارجي، هو بذلك مشتمل بما نسميه المجموعة أو الزمرة المادية.

الثاني هو مجموعة الأحاسيس. فكل الأحاسيس مشمولة في

هذه المجموعة السارة وغير السارة والحيادية التي نشعر بها في احتكاكات أعضائنا الجسدية وعضونا العقلي مع العالم الخارجي. وهذه على ستة أنواع: أحاسيس متولدة من اتصال العين مع الأشكال المرئية والأذن مع الأصوات والأنف مع الروائح واللسان مع الطعوم والجسد مع الأشياء الملموسة. ثم هناك اتصال العضو العقلي (الذي يشكل القدرة السادسة في الفلسفة البوذية) مع الأمور العقلية من نوايا وأفكار. فكل الأحاسيس سواء هي من نوع جسدي أو عقلي إنما مشتملة في هذه الزمرة.

ويحسن هنا أن نقول كلمة عما تعنيه الفلسفة البوذية بالعضو العقلي. يجب أن نفهم جيداً أن العضو العقلي ليس «الفكر» في مقابل «المادة»، كما يجب علينا أن نتذكر بأن البوذية لاتفهم الفكر على أنه مناقض للمادة كما هو متفق عليه في الأنماط الفلسفية الأخرى. ففي منظور البوذية إن العضو العقلي هو ملكة (استعداد كفاءة FACULTE) أو عضو على مستوى العين أو الأذن. ويمكن أن يراقب ويطور كبقية الملكات (الاستعدادات). وقد تحدث بوذا كثيراً عن فائدة مراقبة الملكات الست وتدريبها. والفارق بين العين والعضو العقلي باعتباره ملكة تكمن فقط في أن الأولى تدرك عالم الألوان والأشكال المرئية بينما الثانية تدرك عالم الأفكار والنوايا التي هي أشياء عقلية. نحن نختبر مجالات مختلفة بواسطة حواس مختلفة. فنحن لانستطيع أن نفهم الألوان، ولكننا نراها. ولانستطيع أن نرى الأصوات، بل نسمعها. وهكذا بالنسبة لأعضاء حواسنا الخمس الجسدية العين والأذن والأنف واللسان والجسد التي نختبر بها عالم الأشكال المرئية والأصوات والروائح والطعوم والأشياء الملموسة. ولكن هذه لاتشكل إلا جزءاً من العالم وليس العالم كله. والأفكار والنوايا؟ إنها تشكل مع ذلك هي أيضاً جزءاً من العالم. ولكنها لايمكن أن تدرك عن طريق العين والأذن... الخ. إنها تدرك عن طريق ملكة أخرى هي العضو العقلي. فالأفكار والنوايا ليست مستقلة عن العالم الخارجي الذي تختبره الملكات الجسدية الأخرى،

بل هي ترتبط في الواقع بهذه الاختبارات الجسدية وتتكيف بها. وهكذا نجد أن الشخص الذي يولد أعمى لا يستطيع أن يكون فكرة عن الألوان إلا عن طريق تشبيهات صوتية، أو تشبيهات أخرى أحس بها عن طريق الملكات الأخرى. فالأفكار والنوايا التي هي جزء من العالم الذي نعيش فيه هي إذن ناجمة عن الأحاسيس ذات الطبيعة الجسدية ومتكيفة بها، وهي تُدرك عن طريق العضو العقلي الذي يفهم على أنه ملكة حسية أو عضو على غرار العين والأذن وبقيّة الحواس.

المجموعة الثالثة هي مجموعة (زمرة) التمييز أو الإدراكات الحسية PERCEPTIONS. وكما هي حال الأحاسيس فإن الإدراكات الحسية هي أيضاً على ستة أنواع مرتبطة بالملكات الداخلية الست والأشياء الخارجية الستة. وكما هو حال الأحاسيس فهي ناجمة عن علاقة ملكاتنا الست مع العالم الخارجي. تلك هي الإدراكات الحسية التي نتعرف على الأشياء الجسدية أو العقلية.

والمجموعة الرابعة هي زمرة التشكيلات العقلية. وهذه الزمرة تتضمن كل الأعمال الإرادية الصالحة أو الطالحة. وما هو معروف بصورة عامة تحت اسم «هارما». موجود في هذه المجموعة. إن تحديد الهارما في البوذية لابد أن يذكرنا هنا بقول بوذا: «أيها البهيكهو. ما أسميه هارما هو الفعل الإرادي باعتباره ناجماً عن الإرادة، وهو ينفذ بواسطة الجسد والكلام والعضو العقلي. مهمته أن يوجه الفكر في جو الأعمال الصالحة أو الطالحة أو الحيادية». وكما هو حال الأحاسيس والإدراكات الحسية فإن الفعل الإرادي على أشكال ستة. وهذه الأشكال على علاقة بالملكات الست الداخلية والأنواع الستة من الأشياء (الجسدية والعقلية) المناظرة لها في العالم الخارجي. فالأحاسيس والإدراكات ليست أعمالاً إرادية إذ ليس لها تأثيرات جبرية Karmiques، فالأعمال الإرادية وحدها كالانتباه والإرادة والتصميم والثقة والتركيز والحكمة والحيوية والرغبة والرفض والبغضاء والجهل والغرور وفكرة الأنا... هي

التي تستطيع أن يكون لها تأثيرات جبرية. ويمكننا أن نعدد اثنين وخمسين نشاطاً عقلياً هي التي تشكل مجموعة التشكيلات العقلية.

والمجموعة الخامسة هي مجموعة الوعي CONSCIENCE. الوعي هو رد فعل، جواب، يرتكز على الملكات الست (العين والأذن والأنف واللسان والجسد والعقل) وغرضه واحد من الظواهر الخارجية المناظرة لهذه الملكات (أشكال مرئية، أصوات، روائح، طعوم، أشياء ملموسة وأمور عقلية أي أفكار ونوايا). مثال ذلك أن الوعي بالرؤية يرتكز على العين، وغرضه شكل مرئي. والوعي العقلي يرتكز على العضو العقلي وغرضه الفكرة أو النية. وكذلك الأمر مع الوعي المرتبط بالملكات الأخرى. وهكذا إذن، وكما هو الحال مع الإحساس والتمييز والعمل الإرادي فإن الوعي له ستة أشكال على علاقة بالملكات الست الداخلية والأنواع الستة من الأشياء الخارجية.

ويجب أن نفهم جيداً أن الوعي CONSCIENCE لا يتذكر الشيء، بل هو فقط فعل انتباه، انتباه لوجود شيء. فعندما العين تصبح على صلة بأحد الألوان، الأزرق مثلاً، فإن الوعي عن طريق الرؤية يبدو بكل بساطة أنه ليس إلا تنبهاً لأحد الألوان (أي فعل أنه تنبه لوجود لون). فليس إذن من تذكر في هذه الحالة، بل إن «التمييز، أو الإدراك الحسي PERCEPTION» (وهو المجموعة الثالثة التي تكلمنا عنها سابقاً)، هو الذي يتذكر أن اللون هو الأزرق. إن مصطلح «الوعي عن طريق الرؤية، أو الوعي بالنظر» هو مصطلح فلسفي يجيب على الفكرة نفسها المعبر عنها في المصطلح العادي «الرؤية». فرأى، في الواقع، لاتعني «تذكر»، ويمكننا أن نبدي الملاحظة نفسها بالنسبة لكل واحد من أشكال الوعي.

يجب أن نكرر أنه، في الفلسفة البوذية، ليس من فكر دائم، غير متحرك، يستطيع أن يسمى «هو» أو «نفس» أو «أنا»، على عكس المادة، وأنه يجب ألا يُعتبر الوعي على أنه عقل في مقابل المادة.

ويجب الإلحاح بوجه خاص على هذه النقطة لأن المفهوم الخاطيء بأن الوعي هو نوع من «هو» أو «النفس» التي تبقى على حالها مشكلة جوهراً دائماً طول الحياة، قد ثابر على البقاء منذ أقدم العصور حتى اليوم.

أحد تلاميذ بوذا، واسمه ساتي، أكد أن المعلم علمهم: «إن الوعي نفسه هو الذي يرتحل وإنه هو الذي يضل». فسأله بوذا: «أن يشرح له ما سمعه عن الوعي». وكان جواب ساتي كلاسيكياً: «هو الذي يشرح ويحس ويختبر نتائج الأعمال الصالحة والطالحة هنا وهناك».

«لمن سمعتني أعلم المبدأ بهذه الطريقة أيها الغبي؟ ألم أفسر الوعي بطرق كثيرة بأنه وليد الظروف؟ فلا ولادة للوعي بدون ظروف». ثم أخذ بوذا عندئذ يشرح الوعي بتفصيل: «إن الوعي يأخذ اسمه بحسب الظرف الذي وُلد فيه: فبسبب العين والأشكال يولد وعي يسمى وعي الرؤية. وبسبب الأذن والأصوات يولد وعي يسمى وعي السمع. وبسبب الأنف والروائح يولد وعي يسمى وعي الشم. وبسبب اللسان والطعوم يولد وعي يسمى وعي التذوق. وبسبب الجسد والأشياء الملموسة يولد وعي يسمى وعي اللمس. وبسبب العضو العقلي والأشياء العقلية يولد وعي يسمى الوعي العقلي».

ثم شرح له بوذا أيضاً بالأمثلة التوضيحية التالية: إن النار تأخذ اسمها تبعاً للشعلة التي تشعلها، فإذا كانت من الخشب فهي نار خشب. وإذا كانت من القش فهي نار قش، والحال هي كذلك مع الوعي، فهو يسمى تبعاً للظرف الذي يولد منه.

وقد أَلَحَّ المعلم الكبير على هذه المسألة فقال: «إن النار التي تشتعل بسبب الخشب تشتعل فقط إذا كان ثمة مؤونة مما أشعلها، ولكنها تموت في المكان نفسه إذا لم تعد توجد مؤونة لأن الظروف عندئذ يكون قد تغيرت ولكن النار لا تمتد إلى النشارة لتصبح نار نشارة، وهكذا. وبالطريقة نفسها فإن الوعي الذي يولد بسبب العين

والأشياء المرئية يظهر عن طريق هذا الباب من عضو الحس الذي هو العين، وظهوره لا يكون إلا إذا وجدت الظروف التي توجده من عين وشكل مرئي ونور وانتباه. ويكف (الوعي) عن الوجود إذا لم يعد الظرف موجوداً لأن الظرف يكون عند ذلك قد تغير. ولكن الوعي لا ينتقل إلى الأذن... الخ ولا يغدو وعياً سمعياً، وهكذا دواليك....».

لقد صرح بوذا بعبارات لاغموض فيها أن الوعي يرتبط بالمادة وبالإحساس وبالتمييز (الإدراك الحسي) وبالتشكيلات العقلية ولا يمكن أن يوجد مستقلاً عن هذه الشروط. لقد قال:

«الوعي يمكن أن يوجد عندما يملك المادة وسيلة وهدفاً وسنداً ويكون هو باحثاً عن متعته، عند ذلك يستطيع أن ينمو ويكبر وينتشر. أو إن الوعي يمكن أن يوجد إذا كان الحس وسيلته، أو التمييز وسيلته، أو التشكيلات العقلية وسيلته والتشكيلات العقلية غرضه والتشكيلات العقلية سنده ويكون هو باحثاً عن متعته، فيستطيع أن ينمو ويكبر وينتشر.

إذا وُجد رجل يقول: سأريكم ظهور الوعي ورحيله واختفاءه وولادته واتساعه وانتشاره مستقلاً عن المادة وعن الإحساس وعن التمييز وعن التشكيلات العقلية، فإنه ربما يتحدث عن شيء ليس له وجود».

والخلاصة، تلك هي المجموعات الخمس. وما نسميه «كائناً» أو «شخصاً» أو «أنا» إنما هو تسمية مريحة، لصاقة نلصقها على تركيبة هذه المكونات الخمس. هي كلها ليست دائمة، بل في تغير دائم. «كل ما هو غير دائم هو دوكها». ذلك هو المعنى الحقيقي لهذه الكلمات الصادرة عن بوذا: «الخلاصة: مجموعات الارتباط الخمس هذه هي دوكها»، وهي لا تبقى ذاتها لثانيتين متعاقبتين، فهنا آ لا تساوي آ إنها تدفق من الظهور والاختفاء الفوريين.

«أيها البراهمانا. الأمر تماماً مثل نهر جبلي يذهب بعيداً ويجري بسرعة جارفاً معه كل شيء. فليس من لحظة ولا برهة

ولاثانية يتوقف فيها عن الجريان، بل يمضي جاريًا ومستمرًا بدون انقطاع. وهكذا الحياة البشرية، أيها البراهمانا، شبيهة بهذا النهر الجبلي». كما قال بوذا لراتباهاالا: «العالم مثل فيضان مستمر وهو دائم الجريان».

شيء يختفي مسبباً ظهور شيء آخر بسبب سلسلة من الأسباب والمؤثرات، وليس من وجود لايناله التغيير، وليس من شيء وراء هذا التيار الذي يمكن اعتباره «ذاتاً» دائمة، «فردية مميزة»، ولا شيء مما يمكن أن نطلق عليه اسم «الأننا» حقاً. ولكن عندما تعمل هذه المجموعات الخمس الجسدية والعقلية المترابطة مجتمعةً مشتركةً مثل آلة «نفسية جسدية» تتشكل عندنا فكرة «الأننا»، وهذا فهم خاطئ، «تشكيل عقلي» ليس إلا واحداً من التشكيلات العقلية الاثنتين وخمسين من المجموعة الخامسة التي تحدثنا عنها سابقاً: فكرة الذات.

إن المجموعات الخمس المجتمعة التي نسميها «كائناتاً» هي دوكها، بل «سامكهارا دوكها»، وليس من «كائن» آخر أو «أنا» يقف وراء هذه المجموعات الخمس التي تحقق دوكها كما، قال بوذاغوثا:

«الألم وحده موجود، ولكن لاوجود لأي متألم، الأفعال موجودة، ولكن لا وجود لأي فاعل».

ليس من محرك ثابت وراء الحركة، بل توجد حركة فحسب. وليس صحيحاً أن نقول إنها الحياة هي التي تتحرك، والصحيح أن الحياة والحركة هما الشيء ذاته. الحياة والحركة ليسا شيئين مختلفين. ليس من مفكر وراء الفكر. الفكر هو المفكر نفسه. ولايمكننا ألا نلاحظ هنا كم تتعارض هذه الفكرة البوذية عن عبارة «أنا أفكر إذن أنا موجود» الديكارتية.

يمكننا الآن أن نتساءل ما إذا كان للحياة بداية. بحسب بوذا إن بداية للتيار الحيوي للكائنات الحية أمر غير معقول. فذلك الذي

يعتقد أن الحياة خلقها الله سيكون مندهشاً من هذه الإجابة. ولكن إذا سألناه «وما هي بداية الله؟» فإنه سيجيب بدون تردد «الله ليس له بداية» دون أن يسبب له جوابه أي دهشة. قال بوذا «أيها البهيكهو. بدون بداية يمكن إدراكها هو هذه الدائرة من الدوام، ولايمكننا أن ندرك أول بداية للكائنات التائهة التي تدور في دائرة وقد غلفها الغباء ورُبطت بموانع العطش والرغبات». ولنذكر كذلك أن الغباء هو السبب الرئيسي لاستمرار الحياة. وقد أعلن بوذا: «إن البداية الأولى للغباء ليست ملموسة بحيث نسلّم (بدون برهان) أنه لاوجود للغباء فيما وراء نقطة محددة. «فليس ممكناً إذن أن نقول إن الحياة لم توجد فيما وراء نقطة محددة».

ذلك هو باختصار معنى الحقيقة النبيلة عن دوكها. ومن المهم أن نفهم هذه الحقيقة النبيلة الأولى لأن بوذا قال: «إن من يرى الدوكها يرى أيضاً ولادة دوكها، ويرى كذلك الدرب الذي يؤدي إلى التخلي عن دوكها».

على أن هذه البيئة لاتجعل حياة البوذي قلقاً موحشة كما قد يحاول البعض خطأ أن يتصوروا. الأمر على العكس، فبوذي حقيقي هو أسعد الكائنات. فهو لايشعر بخوف ولا قلق لأنه دائماً هادئ وصافي الذهن فلا إزعاجات ولا مصائب يمكن أن تسبب له الاضطراب. فالبوذي لم يكن قط قلقاً ولا مكتئباً. وقد وصفه معاصروه بأنه «مبتسم دائماً». وقد بدا دائماً في الرسوم والنقوش البوذية بوجه سعيد رائق مسرور ورحيم، ولم يجدوا عنده أي أثر لألم أو قلق أو انشغال بال. إن الفن والنحت في المعابد البوذية لاتعطي أبداً انطباعاً لقلق أو حزن، بل هي تفوح بجو من الهدوء والفرح.

ورغم أن الحياة تحوي الألم فإن البوذي لايجب أن يكون نكد المزاج بسببها. ولا ينبغي له لا أن يغضب منها ولا أن يفقد الصبر. إن أحد أوجاع الحياة بحسب البوذية هو الرفض والكراهية. وقد

الحقيقة النبيلة الثانية: سامودايا ظهور دوکها

الحقيقة النبيلة الثانية هي ظهور دوکها أو أصلها. التحديد الأكثر شيوعاً والأوضح معرفة لهذه الحقيقة الثانية الذي نلقاه في العديد من أماكن النصوص الأصلية هو مايلي:

«إنها ذلك العطش (أو الرغبة الحارة) الذي ينجم عنه الوجود من جديد والصيرورة من جديد المرتبطة بالنهم المشبوب الذي يجد بدون انقطاع متعة جديدة تارة هنا وتارة هناك، وهذا يعني: 1 - العطش إلى لذائذ الحواس. 2 - العطش إلى الوجود والصيرورة. 3 - العطش إلى اللاوجود (الانعدام الذاتي)».

إنها هذا العطش، تلك الرغبة، ذلك النهم، ذلك الطمع الذي يظهر في أشكال متنوعة والذي يؤدي إلى ولادة كل أشكال الألم، وإلى استمرار الكائنات. على أنه يجب ألا يؤخذ على أنه السبب الأول لأنه ليس من الممكن وجود سبب أول نظراً لأنه في البوذية كل شيء نسبي ومتربط ببعضه ببعض. وحتى هذا العطش الذي يُعتبر السبب والأصل للدوکه يتعلق في ظهوره بشيء آخر هو الإحساس، ويتعلق ظهور الإحساس بالاحتكاك، وهكذا تدور الحلقة التي نشير إليها تحت اسم التولد المشروط والتي سنتحدث عنها فيما بعد.

فُسّر الرفض على أنه يعني «سوء النية تجاه الآخرين من الأحياء، وأمام الألم وما يجلب الألم، ووظيفته تكمن في إنتاج قاعدة لحالة من الشقاء والسلوك الشرير». فمن الخطأ إذن أن يكون المرء قليل الصبر عند الألم لأن قلة الصبر والغضب لا تجعل الألم يزول، بل على العكس من ذلك إن قلة الصبر تؤدي إلى زيادة الأسى وتضخيم حالة هي في الأساس مرّة ومؤلمة. ما يجب هو أن يتجنب المرء اللجوء إلى قلة الصبر والغضب، بل أن يفهم الألم ويفهم كيف يأتي وكيف يمكن التخلص منه، وأن يفعل ذلك بصبر وذكاء وتصميم ونشاط.

هناك نصّان بوذيّان في غاية الجمال الشعري، وهما مليّان بالتعبيرات المفرحة عن أن تلاميذ بوذا رجالاً ونساء وجدوا السلام والسعادة في إتباعهم تعليمه. ملك كوسالا أبدى مرة ملاحظة متحدثاً إلى بوذا بأنه، على العكس من مريدي أنظمة دينية أخرى، فإن تلاميذ بوذا «كانوا سعداء فرحين مبتهجين وجذلين. سعداء في الحياة الروحية، إمكاناتهم مرضية خالية من القلق، رائقين هادئين يعيشون بروح الغزلان أي بقلب خفيف». ثم أضاف الملك أنه يعتقد أن هذه الأحوال السعيدة مدينة لواقع أن «هؤلاء الكرام قد حققوا بلا شك أعلى وأكمل ما تعنيه تعاليم بوذا».

فالبوذية معارضة تماماً لحالة فكرية قلقة، حزينة، كئيبة، نكدة، حريصة على الابتعاد عن فهم الحقيقة. وهنا يجب أن نتذكر أن الفرع واحد من سبع صفات يجب التمسك بها والحرص عليها لتحقيق «النيرقانا».

وهكذا فإن العطش ليس السبب الأول ولا السبب الوحيد لظهور دوكها، ولكنه السبب الأكثر وضوحاً والأكثر التصاقاً، «الشيء الرئيسي» و«الشيء المنتشر في كل مكان». ومن هنا يحدث أن تحديد السامودايا أو أصل دوكها - في بعض مقاطع النصوص الأصلية البالية نفسها - يغشاها بعض العيوب الأخرى، وعدم النقاء، والوضوح غير العطش الذي أعطي له مع ذلك المكان الأول على الدوام. وفي حدود التوسع في نقاشنا، تلك الحدود التي نريد أن نتمسك بها، سيكفيها التذكر بأن هذا العطش يتمركز حول الفكرة الخاطئة عن وجود «ذات»، وهذه الفكرة إنما هي ناجمة عن الغباء.

فهنا لفظة «عطش» تتضمن ليس فقط الرغبة والارتباط بلذاث الحواس، وبالثروة والقوة، بل كذلك الأفكار والمثل والآراء والنظريات والمفاهيم والمعتقدات. وبحسب التحليل الذي قام به بوذا في ذلك فإن كل التعاسات والنزاعات في العالم بدءاً من الخصومات الصغيرة العائلية حتى الحروب الكبيرة بين الأمم لها جذورها في هذا «العطش». فرجال الدولة الذين يحملون أنفسهم على إيجاد حل للمنازعات الدولية، والذين يتحدثون في الحرب والسلم وحسب في عبارات سياسية واقتصادية لا يلمسون إلا ما هو سطحي، ولا يصلون ابداً إلى الجذر الحقيقي للمشكلة. وكما قال بوذا لراتهابالا: «إن العالم يعاني من الكبت والحرمان وتنتابه رغبة شرهة لأنه عبد «للعطش»».

إن العالم سيتقبل كله وعن طيب خاطر أن كل التعاسات ولدت عن الرغبة الأنانية، وليس ذلك عصياً على الفهم، ولكن كيف هي هذه الرغبة وكيف هو هذا «العطش» للذات في استطاعتها إنتاج «الوجود من جديد» و«الضرورة من جديد»، فهذا ليس سهلاً فهمه والإحاطة به. وهنا ينبغي علينا مناقشة الجانب الفلسفي الأكثر عمقاً للحقيقة النبيلة الثانية في علاقتها مع الجانب الفلسفي للحقيقة النبيلة الأولى، كما يجب علينا أن نكون فكرة عن نظرية الكارما (أي القدر والجبرية في الديانات الهندية) وعن نظرية «البعث».

نتبين أربعة أغذية - «كسبب أو شرط» - ضرورية للوجود ولاستمرار الكائنات: 1 - الغذاء المادي العادي. 2 - احتكاك أعضاء الحواس (بما في ذلك العضو العقلي) مع العالم الخارجي. 3 - الوعي. 4 - الفعل الإرادي العقلي أو الإرادة.

من بين هذه الأغذية الأربعة يشمل الأخير منها، وهو «الفعل الإرادي العقلي»، يشمل إرادة الحياة والوجود، والوجود من جديد والاستمرار والضرورة أكثر فأكثر. إنه جذر الوجود والاستمرار والنضال الذي يتبع عن طريق أعمال حسنة أو سيئة. و«الفعل الإرادي العقلي» هو «الفعل الإرادي» نفسه. وقد رأينا سابقاً أن الفعل الإرادي هو الكارما (أي القدر والجبرية) كما حدده بوذا بنفسه. ففي إشارته إلى «الفعل الإرادي العقلي» قال بوذا: «عندما نفهم أغذية الفعل الإفرادي العقلي فإننا نفهم أشكال «العطش» الثلاثة. وهكذا فإن عبارات «العطش» و«الفعل الإرادي العقلي» و«الفعل الإرادي» و«الكارما» لها المعنى نفسه. وهي تعني الرغبة وإرادة الوجود والوجود ثانية والضرورة، والنمو أكثر فأكثر والتكديس باستمرار. وهذا هو السبب في ظهور دوكها. وهذه الرغبة توجد في تراكم التشكيلات العقلية. وهذا التراكم هو واحد من التراكمات الخمسة التي تكون كائناً.

سنجد هنا واحدة من النقاط الأكثر أهمية، النقطة الجوهرية حقاً من تعاليم بوذا. ويجب علينا أن نسجل بوضوح وعناية، وأن نتذكر جيداً أن السبب، أن البذرة في ظهور دوكها توجد في دوكها نفسها، أو أن هذا السبب ليس خارجياً. وهذا ما تعنيه الصيغة المعروفة جيداً التي نصادفها في أغلب الأحيان في النصوص الأصلية البالية: «كل ما يملك طبيعة أن يظهر وأن يتجلى يملك كذلك طبيعة الكف والانقطاع CESSATION». فكل كائن أو شيء أو نظام، إذا كان يملك في نفسه طبيعة الظهور والتجلي فإنه يملك أيضاً في ذاته طبيعة وبذرة كفه وانقطاعه ودماره. وهكذا فإن دوكها (الركامات الخمسة) تملك في ذاتها طبيعة ظهورها الذاتي كما تملك

في ذاتها طبيعة كفها وانقطاعها. وسنعود إلى هذه النقطة عندما نصل إلى الحقيقة النبيلة الثالثة (NIRODHA).

إن الكلمة القديمة كامّا (وهي في السنسكريتية كارما من جذر فَعَلَ) تعني حرفياً (عَمَلَ) أو (فَعَلَ). ولكن هذه الكلمة في نظرية الكارما البوذية ترتدي معنى خاصاً هو «الفعل الإرادي» لا أي فعل. وهي لاتعني كذلك «نتيجة الكارما» وهو المنتحى الذي يستعملها فيه الكثير من الأشخاص بهذا اللفظ وهو خطأ ومجانِب للدقة. وفي علم الألفاظ TERMINOLOGIE البوذي لاتعني كارما أبداً تأثيراتها، إذ أن تأثيرات الكارما تسمى «الثمار» أو النتائج.

والإرادة، إلى حد ما، يمكنها أن تكون صالحة أو طالحة. وكذلك الرغبة فإنها يمكن أن تكون صالحة أو طالحة. إن كارما صالحة تنتج نتائج صالحة، بينما الكارما الطالحة تنتج نتائج طالحة. فالعطش أو الفعل الإرادي أو الكارما (الصالحة والطالحة) تملك تأثيراً هو القوة: قوة الاستمرار - الاستمرار في اتجاه صالح أو طالح، خير أو شرير، فالأمر نسبي ويقع في الاستمرار. فواحد من الأراهنات، مهما فعل، لا يكثر من الكارما لأنه متحرر من المفهوم الخاطئ عن الذات، متحرر من «العطش»، من الاستمرارية والصيرورة ومن كل الأوساخ والنجاسات. فبالنسبة له لم يعد ثمة ميلاد جديد.

إن نظرية الكارما يجب ألا تختلط أبداً بما يمكن تسميته «بالعدالة الأخلاقية» أو مع مفهوم «الجزاء أو المكافأة» أو مفهوم «العقاب». ففكرة العدالة الأخلاقية، فكرة المكافأة والعقاب تأتي من مفهوم كائن أعلى، إله يحاكم، مشرع يقرر ما هو خير وما هو شر. فكلمة «عدالة» غامضة وخطرة، وباسمها يرتكب من الشر أكثر مما يصنع من الخير للإنسانية. أما نظرية الكارما فهي نظرية الأسباب والمؤثرات، نظرية الفعل ورد الفعل، وهي تعبّر عن قانون طبيعي لا يرى فيه شيء من عدالة المكافأة والعقاب. فكل عمل يستند على

فعل إرادي ينتج تأثيراته ونتائجه. فإذا كان عملاً صالحاً أنتج تأثيرات صالحة، وإذا كان عملاً طالِحاً أنتج تأثيرات طالحة. والأمر ليس مسألة عدالة أو مكافأة أو عقاب تحكمه قوة تحاكم طبيعة العمل، بل هو بكل بساطة ناجم عن طبيعة هذا العمل الخاصة، عن قانونه الخاص، وليس من الصعب فهم ذلك. ولكن ما هو متعذر على الفهم هو أنه - بحسب النظرية الكارمية - تستطيع تأثيرات عمل مرتكز على فعل إرادي أن تستمر في الظهور حتى في حياة ما بعد الموت. والآن ينبغي علينا إذن أن نفسر ما هو الموت في البوذية.

لقد رأينا أن كائناً ما ليس إلا مركباً من قوى أو طاقات جسدية وعقلية. وما نسميه الموت هو التوقف الكامل لعمل العضوية الجسدية. فهل هذه القوى والطاقات تصل إلى الانتهاء إطلاقاً مع انقطاع عمل العضوية؟ البوذية تقول: كلا. فالإرادة والرغبة وعطش الوجود والاستمرار والصيرورة هي قوة هائلة تحرك مجموع الحيات والموجودات والعالم كله. إنها القوة الأكبر والطاقة الأقوى الموجودة في العالم. وبحسب البوذية إنها لاتكف عن العمل بتوقف عمل جسدينا الذي هو في نظرنا الموت، بل هي تستمر بالظهور في شكل آخر منتجة حياة جديدة نسميها البعث.

ويرد على الذهن سؤال آخر: إذا لم يعد يوجد كيان دائم لا يتغير، إذا لم يعد ثمة جوهر كالذات أو النفس، فما الذي يستطيع إذن أن يحيا من جديد، أن يولد من جديد بعد الموت؟ قبل أن نصل في هذه المسألة إلى الحياة بعد الموت لننظر ملياً فيما هي الحياة الحالية، كيف تستمر الآن. ما نسميه حياة - وقد كررنا ذلك - هو تجمع خمسة تراكمات، تجمع طاقات جسدية وعقلية. وهذه تتغير دائماً ولا تبقى نفسها خلال برهتين متعاقبتين. إنها تحيا وتموت في كل لحظة، «فما يكاد التجمع يظهر حتى ينحط ويموت، أيها البهيكهو في كل لحظة أنتم تولدون وتنحطون وتموتون».

والخلاصة هي أننا، حتى في مدة حياتنا هذه، نولد ونموت في

كل لحظة، ومع ذلك نحن نستمر في الوجود. فإذا استطعنا أن نفهم أننا في هذه الحياة نستطيع أن نستمر في الوجود دون وجود جوهر دائم ثابت كالذات أو النفس، فلماذا إذن لانستطيع أن نفهم أن هذه القوى نفسها تستطيع أن تستمر في العمل دون أن يكون فيها ذات أو نفس لإنعاشها بعد أن تكون العضوية الجسدية قد كفت عن العمل؟

عندما لا يعود هذا الجسم الجسدي قادراً على العمل فإن الطاقات لا تموت معه، بل تستمر في ممارسة ذاتية متخذة شكلاً آخر هو ما نسميه حياة أخرى. فعند الطفل تكون الكفاءات الجسدية والعقلية والفكرية كلها طرية وضعيفة، ولكنها تملك في ذاتها القدرة الكامنة على إنتاج رجل بالغ، لأن الطاقات الجسدية والعقلية التي تشكل ما نسميه إنساناً موهوبة في ذاتها لتتمكن من اتخاذ شكل جديد ولتنمو بالتدريب حتى تصل إلى كامل قدرتها.

وبما أنه لا يوجد جوهر دائم وثابت فلا شيء ينتقل من لحظة إلى أخرى، وهكذا فإن من البديهي أنه ليس من دائم أو ثابت يستطيع المرور أو الهجرة من حياة إلى أخرى. إنها حقاً سلسلة تستمر بدون انقطاع ولكنها تتغير بين لحظة وأخرى. وهذه السلسلة - إذا توخينا الدقة في كلامنا - ليست إلا حركة. إنها مثل لهب يشتعل في الليل: إنه ليس نفسه كما أنه ليس غيره. رجل يكبر ويصبح رجلاً في الستين. من البديهي أن هذا الرجل ليس الطفل الذي ولد قبل ستين عاماً - وهو كذلك ليس غيره. وكذلك الأمر في رجل مات هنا وولد من جديد في مكان آخر، إنه ليست الشخص نفسه ولا شخصاً آخر. إنها استمرارية للسلسلة نفسها، والفرق بين الموت والولادة ليس إلا لحظة في تفكيرنا: آخر لحظة من الفكر في هذه الحياة ستهيء أول لحظة فيما سنسميه حياة لاحقة. وهذه الحياة اللاحقة ليست في الواقع إلا استمراراً للسلسلة نفسها. حتى لحظة في هذه الحياة نفسها من الفكر تهيء للحظة التالية، وهكذا فإن مسألة حياة بعد

الموت، من وجهة نظر البوذية، لا تشكل سرّاً كبيراً، والبودي لا يشغل باله أبداً بهذه «المشكلة».

طالما وُجد «العطش» للكينونة والضرورة فإن دائرة الاستمرار ستتوالى ولن تستطيع الوصول إلى نهاية إلا عندما تُنتزع القوة التي تحركها، وهي هذا «العطش» نفسه، وأن تُقطع بواسطة «الحكمة» التي ستمتلك رؤية واقع «النيرفانا» وحقيقتها.

التي لا تستطيع أن تتضمن ألفاظاً تعبر عن طبيعة الأرض اليابسة. تقول السلحفاة لصديقتها السمكة إنها عادت إلى البحيرة بعد أن قامت بنزهة فوق الأرض اليابسة. «طبعاً، قالت السمكة، لقد أردت أن أقول إنك سبحت على الأرض اليابسة». وحاولت السلحفاة أن تشرح أنه لا يمكن السباحة على الأرض وأنها صلبة ويجب عليها المسير، ولكن السمكة كانت تصر مؤكدة أنه لا يمكن أن يوجد ما يشبه ذلك، ولا بد أن تكون الأرض مائعة وعليها أمواج ولا بد فيها من السباحة والغطس.

الحقيقة النبيلة الثالثة:

نيروذا توقف دوکها

إن الكلمات رموز تعيد تقديم الأشياء والأفكار المألوفة عندنا. وهذه الرموز لا تترجم وليس لديها القدرة على التعبير عن الطبيعة الحقيقية لأشياء حتى الكثيرة الشيوخ. وينبغي أن تفهم أن اللغة خادعة ومضللة عندما يتعلق الأمر بإمسك الحقيقة. وكما قال لانكافاتارا - سوترا إن الجاهلين يتركون أنفسهم يتخطون في الكلمات كما يتخط الفيل في الوحل.

على أننا لا نستطيع مع ذلك أن نتجاوز اللغة. ولكن إذا كان لا بد للنيرقانا أن تُشرح وأن يعبر عنها بكلمات وتعابير إيجابية فإننا سنتعرض لخطر الارتباط فوراً بفكرة ملتصقة بالتعابير التي سنستعملها والتي يمكن أن تكون مناقضة تماماً (لما أردنا التعبير عنه). لذلك نستعمل بصورة عامة تعابير سلبية، وهو ما يمكن أن يكون أقل خطراً. ولذلك سنقوم غالباً بتلميح للنيرقانا بمساعدة تعابير سلبية مثل كلمة «تانهاكهايا» أي «استئصال العطش»، وكلمة «أسامكهاتا» أي «غير المركب»، «غير المشروط»، وكلمة «قيراغا» أي «غياب الرغبة»، و«نيروذا» أي «توقف»، و«نيبانا» أي «استئصال».

وإليك بعض التعاريف والأوصاف للنيرقانا كما وردت في النصوص الباليّة الأصلية.

الحقيقة النبيلة الثالثة هي أن يوجد اختفاء أو تحرر من الألم، من استمرار دوکها. وهي تسمى الحقيقة النبيلة عن توقف دوکها الذي هو النيبانا الذي يشتهر أكثر تحت اسمه السنسكريتي النيرقانا.

ومن أجل حذف دوکها حذفاً كاملاً يجب أن يحذف منها جذرها الأساسي الذي هو «العطش» كما رأينا سابقاً. ولذلك عُرفت النيرقانا باسمها السنسكريتي «تانهاكهايا» الذي يعني «استئصال العطش».

ستسألون الآن: ولكن ما هي النيرقانا؟ لقد كُتبت مجلدات لإعطاء جواب لهذا السؤال الطبيعي جداً والبسيط جداً، ولكنها لم تفعل إلا تعميم السؤال أكثر من توضيحه. والجواب الوحيد المعقول الذي يمكن أن يُعطى هو أن من المستحيل الإجابة بشكل كامل وبطريقة مرضية بالكلمات، ذلك لأن اللغة الإنسانية فقيرة جداً لشرح الطبيعة الحقيقية والواقع السامي الذي هو النيرقانا. لقد خلقت اللغة واستعملت من جمهور الكائنات الإنسانية للتعبير عن أشياء وأفكار جربتها واختبرتها أحاسيسهم وعقلهم. أما تجربة فوق - إنسانية كالحقيقة المطلقة فهي لا تنتمي لهذا النمط. فلا توجد إذن كلمات تستطيع التعبير عن هذه التجربة. وكذلك هو الأمر مع لغة الأسماك

«إنها التوقف الكامل لهذا العطش، التخلي عنه، هجرة، التحرر منه، الانفصال عنه».

«هي تهدئة كل ماهو مشروط، هجر كل القذارات، استئصال العطش، الانفصال، التوقف، النيّانا».

«أيها البهيكهو، ما هو المطلق، ما هو غير المشروط؟ إنه، أيها البهيكهو، استئصال الرغبة، استئصال البغضاء، استئصال الوهم. هذا، أيها البهيكهو، ما يسمى بالمطلق».

«أيها الراذا، إن استئصال «العطش» هو النيّانا».

«أيها البهيكهو، مهما كانت الأشياء المشروطة أو غير المشروطة فإن «الانفصال» هو الأكثر رفعة. وهذا يعني التحرر من الغرور، تدمير «العطش»، اجتثاث الارتباط، قطع الاستمرار، استئصال «العطش»، الانفصال، التوقف، النيّانا».

إن جواب ساريبوتا، وهو ألمع تلاميذ بوذا، على السؤال المباشر: «ماهي النيّانا؟» الذي طرحه واحد من الباريفراجاكا، كان مطابقاً للتحديد الذي أعطاه بوذا نفسه والذي سجلناه سابقاً: «استئصال الرغبة، استئصال البغضاء، استئصال الوهم».

«إن هجر الرغبة وتدميرها وهجر الشراهية وتدميرها تجاه هذه المجموعات الخمسة من الارتباط هو توقف دوكها».

«توقف الاستمرار والصيرورة هو نيّانا».

وكذلك تحدث بوذا عن النيرقانا بقوله:

«أيها البهيكهو، هناك اللامولود، اللاصائر، اللامشروط، واللامركّب. فإذا لم يكن ثمة لا مولود واللاصائر واللامشروط واللامركّب فقد لا يكون هناك خلاص من المولود واللاصائر والمشروط والمركّب. وبما أنه يوجد اللامولود واللاصائر واللامشروط واللامركّب فقد يكون ثمة اعتناق للمولود واللاصائر والمشروط والمركّب».

هنا لامكان للعناصر الأربعة: القاسي والمائع والحرارة والحركة. كما لا يمكن أن يكون ثمة وجود لمفاهيم الطول والعرض، المرهف والغليظ، الخير والشر، للإسم والشكل، فهي كلها قطعاً مقوضة خربة. ولا يمكن أن يكون ثمة وجود لهذا العالم ولا للعالم الآخر ولا لما يأتي ولا لما يذهب، ولا لما يبقى واقفاً ولا للموت ولا للولادة ولا الأشياء ولا المعاني.

وبما أننا عبرنا بهذا الشكل عن النيرقانا بتعابير سلبية فإن الكثيرين من الأشخاص يمتلكون مفهوماً خاطئاً عما هو سلبي ويعبر عن إلغاء الذات. إن الأمر ليس قطعاً إلغاء للذات لأنه لا وجود في الواقع للذات لتلغى. وإذا كان ثمة إلغاء فهو إلغاء للوهم الذي يعطي فكرة خاطئة عن الذات.

إن من الخطأ القول إن النيرقانا سلبية أو إيجابية. فمفاهيم السلبي أو الإيجابي هي مفاهيم نسبية وتنتمي لمجال الثنائية، لذلك فإن هذه الألفاظ لا تنطبق على النيرقانا، على الحقيقة المطلقة لأنها تجاوزت الثنائية والنسبية.

إن كلمة «سلبي» لاتدل بالضرورة عن حالة سلبية. فالكلمة التي تعني «الصحة» في السنسكريتية هي أروغيا، وهي كلمة سلبية تعني حرفياً «غياب» المرض. ومع ذلك فإن أروغيا (الصحة) لاتدل على حالة سلبية. وكلمة «خالد» التي هي في السنسكريتية أميتا وفي اللهجة البالية آماتا والتي هي مرادفة أيضاً للنيرقانا هي سلبية، ومع ذلك هي لاتعني حالة سلبية. إن إنكار القيم السلبية ليس له معنى سلبي. فمن المترادفات الشائعة للنيرقانا «الحرية» أيضاً (وهي في البالية موتّي وفي السنسكريتية موكتي)، ولن يذهب أحد للقول إن لها معنى سلبياً، مع أن للحرية جانباً سلبياً لأنها تعني التحرر دائماً من عائق، من شيء سيء سلبي، بينما الحرية نفسها ليست سلبية. وكذلك هو الأمر مع النيرقانا «موتّي» أو «قيموتّي» الحرية المطلقة -

الحرية من كل ما هو خبيث، من الرغبة، من الجهل، من البغضاء، حرية من كل ما يعني الثنائية والنسبية ومن الزمان والمكان.

نستطيع أن نكون فكرة عن النيرقانا باعتبارها حقيقة مطلقة (كما ورد في أحد المصادر العتيقة الموثوقة). هذا الخطاب وجهه المعلم «بوذا» لبوكوساتي (الذي مر ذكره)، والذي وجده المعلم ذكياً ومرتزناً في الليلة التي أمضيها معاً في مشغل صانع الفخار، وإليك منه الجوهري مما يهمنا:

إن الإنسان مؤلف من ستة عناصر: القساوة والميوعة والحرارة والحركة والمكان والشعور. وعندما يحل هذه العناصر يكتشف أنه ليس فيها «أنا» أو «يخصني». ويفهم كيف أن الشعور يظهر ويختفي، وكيف أن الأحاسيس ما هو سار منها أو مزعج أو حيادي تظهر وتختفي. ونتيجة لهذه المعرفة يغدو عقله منطلقاً من كل قيد، وعند ذلك يكتشف في نفسه صفاء ذهن نقياً يستطيع توجيهه للوصول إلى أي حالة من السمو العقلي، ويعرف أن صفاء الذهن النقي هذا سيبقى ثابتاً خلال فترة طويلة من الزمان. ولكنه يفكر: «إذا وجهت هذا الذهن الصافي الواضح نحو جو الفضاء اللامتناهي وإذا طورت ذهناً مناظراً له فذلك هو خلق عقلي. وإذا وجهت هذا الذهن الصافي الواضح نحو جو الشعور اللامتناهي، نحو جو العدم... أو نحو لا جو الإدراك الحسي ولا جو اللا إدراك الحسي، وإذا طورت ذهناً مناظراً لذلك، فذلك خلق عقلي»، بينما هو لا يخلق عقلياً ولا يتمنى لا الاستمرارية ولا الصيرورة ولا العدمية. وبما أنه لا يبني عقلياً، وبما أنه لا يريد الاستمرارية ولا الصيرورة ولا العدمية فإنه لا يتشبث بشيء في هذا العالم. وبما أنه لا يرتبط بشيء فهو خال من القلق. وبما أنه خال من القلق فإنه هادئ بشكل كامل وانطفأ اللهب تماماً في ذاته. وهو يعرف أن «الولادة انتهت، وعيشة الحياة النقية، وتم إنجاز ما كان من عمل، ولم يبق شيء يُعمل في سبيل ذلك».

والآن، إذا ما شعر بإحساس سار أو غير سار أو حيادي، فإنه يعرف أن ذلك غير دائم، أن ذلك لا يتعلق به، أن ذلك الإحساس لم ينتبّه عن رغبة وهوى. ومهما كان الإحساس فهو يشعر به دون أن يكون له به ارتباط. وهو يعرف أن هذه الأحاسيس ستهدأ مع انحلال الجسد، كما تنطفئ شعلة قنديل عندما تفقد الفتيلة زيتها.

«والنتيجة، أيها البهيكهو، إن شخصاً مزوداً على هذه الشاكلة يملك الحكمة المطلقة، ذلك لأن معرفة استئصال كل شيء هي الحكمة النبيلة المطلقة.

«وخلاصه المبني على الحقيقة لايهتز. أيها البهيكهو، إن ما هو غير واقعي هو خطأ. وما هو واقعي (نيبانا) هو حقيقة (ساکا). إذن، أيها البهيكهو، إن شخصاً مزوداً على هذه الشاكلة هو مزود بالحقيقة المطلقة، ذلك لأن الحقيقة النبيلة المطلقة هي (نيبانا) التي هي الواقع».

في مكان آخر استعمل بوذا، وبدون التباس، كلمة حقيقة في مكان كلمة (نيبانا): «سأعلمكم الحقيقة والصراط الذي يقود إلى الحقيقة». فهنا الحقيقة تعني النيرقانا بشكل مؤكد لالبس فيه.

والآن ما هي الحقيقة المطلقة؟ بحسب بوذا، الحقيقة المطلقة هي أنه لا وجود للمطلق في هذا العالم، وأن كل شيء نسبي، مشروط، وغير دائم. وأنه لا وجود لجوهر مطلق لا يتغير، أبدي، كالات والنفس (أو آتمان)، فينا أو خارجنا. هذا هو الحقيقة المطلقة. فالحقيقة ليست أبداً سلبية رغم وجود تعبير شعبي مثل تعبير «الحقيقة السلبية». وفهم هذه الحقيقة، أي رؤية الأشياء كما هي بدون وهم ولا جهل هو استئصال الرغبة و«العطش» وانقطاع الدوكها الذي هو «النيرقانا». ومن النافع المفيد أن نتذكر هنا وجهة نظر الماهيانا عن النيرقانا باعتبارها ليست شيئاً مختلفاً عن «السامسارا». وكذلك السامسارا فإنها النيرقانا نفسها وفقاً لطريقة النظر إليها، أي وفقاً لما تكون طريقة النظر شخصية أو موضوعية.

ومفهوم الماهيانا هذا ربما تم إعداده انطلاقاً من الأفكار التي وجدت في النصوص الأصلية في اللغة الباليّة لثيرافادا التي هي مرجعنا في هذا العرض المختصر.

وربما كان غير صحيح أن نفكر بأن النيرقانا هي النتيجة الطبيعية لاستئصال الرغبة. فالنيرقانا ليست نتيجة لأي شيء. فلو أنها نتيجة لكانت نتاجاً لأحد الأسباب، وعندئذ ستكون نتاجاً مشروطاً. إن النيرقانا ليست سبباً ولا نتيجة لأنها خارج الأسباب والنتائج. فالحقيقة ليست نتيجة ولا مؤثراً، وليست ناتجاً كما لو أنها حالة عقلية مجازية فكرية. فطالما الحقيقة موجودة فالنيرقانا موجودة. والشئ الوحيد الذي ربما تمكنت من عمله هو أن تروها، أن تفهموها. وثمة صراط يقود إليها ولكنها ليست نتيجة لهذا الصراط. تستطيعون ارتقاء جبل باتباعكم صراطاً (أي ممراً أو درباً ضيقاً)، ولكن لا يمكن القول إن الجبل هو نتيجة أو نتاج للصراط. تستطيعون رؤية نور، ولكن النور ليس نتيجة لنظرتكم.

يسأل الكثيرون: ما وراء النيرقانا؟ إن هذا السؤال لا يمكن أن يطرح لأن النيرقانا هي الحقيقة الأسمى، وبما أنها الأسمى فلا يمكن أن يكون بعدها شيء. وإذا وجد شيء فيما وراء النيرقانا فستكون إذن هي الحقيقة الأسمى وليس النيرقانا. والواقع أن كاهناً اسمه رازا كان قد طرح هذا السؤال على بوذا بكلمات أخرى: «لأي هدف، لأية غاية هي النيرقانا؟» وهذا السؤال يفترض إذن أن يكون بعد النيرقانا شيء آخر، لأنه يسلم بوجود هدف وغاية.

عندئذ أجاب بوذا: «يارازا، هذا السؤال لا يستطيع أن يأخذ حده (أي أن هذا السؤال هو خارج الموضوع). إن المرء يعيش الحياة القدسية لأن النيرقانا أشبه بالغطسة الأخيرة، ولأنها الهدف الأسمى والغاية الأسمى».

إن بعض التعابير الشعبية الخاطئة مثل التعبير التالي على سبيل المثال: «إن بوذا دخل في النيرقانا أو في البارينيرقانا». فمنذ أن

تسمع القول بأن «بوذا دخل في النيرقانا أو البارينيرقانا» فإنك تميل إلى اعتبار النيرقانا حالة أو منطقة أو ظرفاً حيث ثمة وجود من نوع ما وتحاول أن تتخيلها بمعنى يستطيع أن يدفع إلى ذهنك كلمة «وجود» كما تعرفه في حياتك العادية. ونحن لم نجد في النصوص الأصلية شيئاً يشبه هذا التعبير الشعبي: «دخل في النيرقانا»، وليس فيها ما يعادل «دخل بعد موته في النيرقانا». بل هنالك كلمة استعملت للدلالة على موت واحد من البوذا أو الأراھانت الذي بلغ النيرقانا وهو بارينيبوتو، ولكنها لاتعني عبارة «دخل في النيرقانا»، فبارينيبوتو أراد أن يقول ببساطة: «توفي كلياً، انطفأ كلياً» وهي صورة لشعلة تنطفئ. ذلك لأن بوذا أو واحد من الأراھانت ليس له وجود جديد بعد الموت.

والآن يأتي سؤال آخر: ما الذي يحصل لبوذا أو لواحد من الأراھانت بعد موته، بعد البارينيرقانا؟ هذا السؤال جزء من الأسئلة التي تركت بدون جواب. وحتى عندما تحدث بوذا عنها لاحظ أنه ما من كلمة في مفرداتنا اللغوية تستطيع أن تشرح ماذا يحدث لواحد من الأراھانت بعد موته. وعندما أجاب أحد السائلين قال بوذا إن الكلمات من أمثلا «وُلد» أو «لم يولد» لاتنطبق على حالة واحد من الأراھانت، لأن أشياء من أمثال مادة وإحساس وإدراك ونشاطات عقلية وشعور التي ترتبط بها كلمات مثل «وُلد» أو «لم يولد» قد دُمرت تماماً واقتلعت من جذورها لكي لاتظهر ثانية بعد موته.

إن واحداً من الأراھانت غالباً ما يشبهه بعد موته بنار انطفأت بعد أن نفذ وقودها، أو بشعلة قنديل خبت عندما نفذ الزيت واستهلك الفتيل. فينبغي أن نفهم هنا بوضوح وتدقيق، وبدون ليس، أن ما يشبهه بنار أو بشعلة تنطفئ ليس هو النيرقانا، بل هو «الكائن» المركب من خمسة تراكمات هي التي أنجزت النيرقانا. ويجب الإلحاح على هذه النقطة، لأن بعض الأشخاص، أو حتى بعض كبار العلماء الباحثين، قد فهموا وفسروا هذا الرمز بطريقة خاطئة

معتقدين أنه يتعلق بالنيرقانا، بينما لم تشبَّ النيرقانا قط بنار أو شعلة منطفئة.

وثمة سؤال آخر يطرح كثيراً عما إذا لم يكن هنالك «ذات» أو «آتمان» تحقق النيرقانا؟ وقبل أن نذهب إلى النيرقانا نطرح السؤال التالي: من ذا الذي لا يعتقد الآن بوجود «ذات»؟ لقد رأينا سابقاً إن الفكر هو الذي يفكر وليس من مفكر وراء الفكر. كذلك فإنها الحكمة (أو الإنجاز) هي التي تنجز، وليس من ذات أخرى وراء الإنجاز. وقد رأينا عند مناقشة أصل دوكها أنه مهما كان من أمر كائن أو شيء أو نظام، فإنه إذا كان يملك طبيعة أن ينتج نفسه فهو يتضمن في ذاته طبيعة أو بذرة توقفه وانقطاعه CESSATION ودماره. إن دوكها، أو السامسارا، أو دائرة الاستمرار، تملك طبيعة الظهور، وهذا يوجب أن يكون لها طبيعة الانقطاع أو التوقف أيضاً. وقد وُلدت دوكها بسبب «العطش» (TANHA) وتنتهي بسبب الحكمة (PANNA). والعطش والحكمة يوجدان معاً في دوكها، في التراكمات الخمسة، كما رأينا.

إن بذرة ظهورها، مثل بذرة توقفها، توجد إذن في داخل التراكمات الخمسة. وهذا هو المعنى الحقيقي لتصريح بوذا: «في هذا الجسد الحساس نفسه، وعلى طول باع، ألتمس العالم، ظهور العالم، انقطاع العالم، والصراط الذي يؤدي إلى انقطاع العالم». وهذا يعني أن الحقائق النبيلة الأربع توجد في التراكمات AGREGATS الخمسة، أي فينا نحن أنفسنا، فهنا كلمة «العالم» استعملت بدلاً من دوكها. وهذا يعني أيضاً أنه لا توجد أية قوة أخرى خارجية ينجم عنها (أو تُنتج) ظهور وانقطاع دوكها. وعندما تنمو الحكمة وتقوى بحسب الحقيقة النبيلة الرابعة التي سنأتي على ذكرها، فإنها تكتشف سر الحياة وترى واقع الأشياء كما هي. وعندما ينكشف السر وتكتشف الحقيقة فإن كل القوى التي ينتج عنها بتهيج وعصبية وعن طريق الوهم استمرار السامسارا

تهداً وتغدو عاجزة عن إنتاج تشكلات جديدة، لأنه لم يعد يوجد وهم و«عطش» لحماية الاستمرار والدوام. وهذا يشبه مرضاً عقلياً يُشفى عندما يُكتشف سببه وسره ويبراهما المريض بوضوح.

«إن الغاية السامية المرجوة SUMMUM BONUM لا يمكن بلوغها، في جميع الأديان تقريباً، إلا بعد الموت. بينما يمكن أن تتحقق النيرقانا في هذه الحياة نفسها، وليس من الضروري انتظار بلوغها».

إن من يحقق الحقيقة، أي النيرقانا، هو أسعد كائن في العالم. فهو يتحرر من كل «العقد COMPLEXES» ومن كل الوسواس والمنغصات والصعوبات والمشاكل التي تعذب الآخرين. فصحته العقلية كاملة. لا يأسف على الماضي ولا يهتم بالمستقبل، يعيش في اللحظة الحاضرة، يتذوق الأمور ويتمتع بها في المنحى الأكثر نقاءً وبدون «إسقاط» من ذاته. هو فرح، مبتهج، متمتع بالحياة النقية، ملكاته راضية، محرر من كل ضيق، رائق وهادئ. هو متحرر من الرغبات الأنانية، من البغضاء، ممتلئ بحب عالمي، وبالرأفة والطيبة والعطف والتفهم والتسامح. يخدم الآخرين بالطريقة الأنقى لأنه لا يفكر بنفسه ولا يسعى وراء ربح، لا يجمع شيئاً حتى ولا المكاسب الفكرية لأنه متحرر من الوهم من «الذاتية» ومن «العطش» ومن الصيرورة.

النيرقانا بعيدة عن كلمات الثنائية والنسبية. فهي إذن بعيدة عن مفاهيمنا العامة عن الخير والشر، عن العادل والظالم، عن الوجود وعدم الوجود. حتى كلمة «السعادة» التي شاع استعمالها في وصف النيرقانا لها معنى مختلف كل الاختلاف. قال ساريبوتا مرة: «أيها الصديق. النيرقانا هي السعادة، النيرقانا هي السعادة. عند ذلك سأله أودايي: ولكن أيها الصديق ساريبوتا، أية سعادة هي، لأنه لا يوجد إحساس؟ وكان جواب ساريبوتا فلسفياً عالياً جداً، هو فوق مستوى الفهم العام: إذا لم يكن يوجد إحساس فهذا هو السعادة نفسها».

والنيرقانا بعيدة عن المنطق والإستدلال. فرغم أننا تحت إغراء الانخراط غالباً في «تقطيع وقت» فكري، في مناقشات تأملية متعلقة بالنيرقانا، فإن الحقيقة العليا أو الواقع لن نفهمها أبداً على هذه الطريقة. والطفل لا يتخاضم في موضوع النسبية عندما يكون في مدرسة الحضانة. وإذا تمكن من متابعة دراساته بصبر واجتهاد فإنه ربما تمكن في أحد الأيام من فهمها. يجب أن نتحقق النيرقانا على يد الحكماء في أنفسهم. فإذا تبعنا الصراط بصبر واجتهاد، وإذا دربنا وتطهرنا بنزاهة ودقة، وإذا بلغنا بذلك التطور الروحاني الضروري، فسيكون من الممكن في أحد الأيام أن نحققها في أنفسنا وبدون استعمال كلمات سرية كبيرة.

فلنمض الآن إذن إلى الصراط الذي يقودنا إلى تحقيق النيرقانا.

الحقيقة النبيلة الرابعة: ما جّا الصراط

الحقيقة النبيلة الرابعة هي الصراط الذي يقود إلى توقف دوكها. وهو يعرف باسم «صراط الوسط» لأنه يتجنب ضدين: أولهما هو تتبع السعادة في خضوعها للملذات الحسية وهو أمر «دنيء، مبتذل، لا فائدة منه وطريقة الناس العاديين». والثاني هو البحث عن السعادة التي تعتمد، على العكس من ذلك، على الإماتة عن طريق أشكال مختلفة من التقشف. وهو أمر «مؤلم» لا قيمة له ولا فائدة منه. وقد حاول بوذا بنفسه هذين الضدين، وعرف عدم جدواهما واكتشف بالتجربة الشخصية صراط الوسط «الذي يعطي الرؤية والمعرفة ويقود إلى الهدوء والرؤية العميقة، إلى اليقظة، إلى النيرقانا». ويشار إلى صراط الوسط هذا تحت اسم الصراط النبيل الثماني لأنه يحتوي على ثمانية أبواب أو أقسام:

- 1 - الرؤية الصحيحة.
- 2 - الفكر الصحيح.
- 3 - الكلام الصحيح.
- 4 - العمل الصحيح.
- 5 - وسائل الحياة الصحيحة.
- 6 - المجهود الصحيح.
- 7 - الانتباه الصحيح.
- 8 - التركيز الصحيح.

من الناحية العملية كل تعليم بوذا الذي كرس له خمسة وأربعين عاماً من حياته وتحدث بطريقة أو أخرى عن هذا الصراط. وشرحه بطرائق متنوعة، مستعملاً كلمات مختلفة بحسب الأشخاص الذين يوجه إليهم الحديث، وتبعاً لحالة نضجهم وقابليتهم للفهم والمتابعة، ولكن جوهر هذه الآلاف من الأحاديث الموزعة على طول الكتابات البوذية يوجد في الصراط الثماني النبيل.

ولا يجب الظن بأن الأبواب أو التقسيمات للصراط ينبغي اتباعها واحداً بعد آخر في النظام الذي أشرنا إليه في القائمة الدارجة التي قدمناها منذ قليل، بل يحسن أن نتبعها معاً، بقدر المستطاع وبحسب مقدرة كل فرد، فكلها مترابطة فيما بينها وكل واحدة منها تساعد على مباشرة الأخريات.

هذه العوامل الثمانية تهدف إلى تشجيع عناصر جوهرية ثلاثة للتمرين والترويض البوذي وتنميتها حتى الكمال: 1 - سلوك أخلاقي (سيلا)، 2 - ترويض عقلي (سامادي)، 3 - حكمة (بانا). والنتيجة أنه سيكون أكثر فائدة بكثير لفهم أفضل وأكثر تماسكاً لأقسام الصراط الثمانية وشرحها، هو أن نصنفها تحت هذه العناوين الثلاثة.

يقوم السلوك الأخلاقي (سيلا) على فهم واسع للحب العالمي وعلى التعاطف مع كل الكائنات الحية، وذلك موجود في أساس التعليم البوذي. وإنها لخطيئة مؤسفة ومؤذية تلك التي يرتكبها الكثيرون من الباحثين عندما ينسون هذه المثالية الكبيرة في تعاليم بوذا، وهم يسلمون أنفسهم فقط إلى هذيان فلسفية وميتافيزيكية جافة عن البوذية. لقد علّم بوذا «من أجل خير أكبر عدد، من أجل سعادة أكبر عدد، من أجل الرأفة على الناس».

لكي يكون الإنسان كاملاً هناك، بحسب البوذية، صفتان يجب تنميتها معاً وبالتساوي: الرأفة من جهة، والحكمة من جهة أخرى. هنا الرأفة تشمل المحبة والإحسان والطيبة والتسامح وكل مواصفات القلب النبيلة. وتلك هي جهة المحبة، بينما تعني

الحكمة الجهة العقلية، الصفات الفكرية. فإذا ما أنميت جهة المحبة وحدها وبقيت الجهة العقلية مهملة فإن المرء يصبح أحمق ذا قلب طيب. وإذا أنميت الجهة العقلية حصراً وأهملت جهة المحبة فإن المرء يصبح جافاً بدون أية مشاعر تجاه الآخرين. فالكمال يتطلب أن تُنمى الجهتان بالتساوي، وتلك هي غاية طريق البوذية. ولهذا فإن بوذاً حقيقياً متفهماً الأمور كما هي بذكاء وحكمة يكون مليئاً بالحب والرأفة تجاه كل الكائنات الحية، - ليس فقط الناس بل كل الكائنات - فالحكمة والرأفة لا تفرقان في الطريق البوذي كما سنرى فيما يلي.

إن السلوك الأخلاقي القائم على المحبة والرأفة يتضمن ثلاثة عوامل من الصراط النبيل الثماني: الكلام الصحيح، العمل الصحيح، ووسائل حياة صحيحة (وقد أعطينا فيما سبق الأرقام 3 و 4 و 5) والكلام الصحيح يعني الامتناع عن 1 - الكذب. 2 - الغيبة والنميمة وكل كلام يمكن أن يسبب البغضاء والكراهية والفرقة والنفور بين الأشخاص أو الجماعات. 3 - عن كل لهجة قاسية، فظة، غير مهذبة، عدوانية أو مهينة، وأخيراً 4 - عن الثثرات التي لانفع فيها، التافهة، العبثية والحمقاء. وعندما يمتنع عن كل هذه الأشكال من الكلام الخاطئ والضار يجب عليه قول الحقيقة، يجب أن يستعمل كلمات ودية، عطوفة، متسامحة مستساغة وعذبة لها معنى وذات نفع، ولا ينبغي الحديث بإهمال وكيفما اتفق، بل في اللحظة المناسبة والمكان المناسب. وإذا لم يكن لديه شيء نافع يقوله فينبغي عليه أن يتمسك «بصمت نبيل».

ويهدف العمل الصحيح إلى القيام بسلوك أخلاقي مشرف وهادئ. مطلوب منا أن نمتنع عن تدمير الحياة، والسرقة، وعن ردود الفعل غير المشرفة، عن العلاقات الجنسية غير الشرعية، أن نساعد الآخرين على أن يسلكوا الطريق المستقيم، الطريق الهادئ المشرف.

أما وسائل الحياة الصحيحة فهي تعني أنه ينبغي على المرء أن يمتنع عن كسب عيشه في مهنة ضارة بالآخرين كتجارة الأسلحة وآلات القتل، وتجارة المشروبات المسكرة والسموم، وإماتة الحيوانات، والغش... الخ. وأن عليه أن يعيش من مهنة شريفة لا لوم عليها ولا تسبب الضرر للآخرين. وهكذا فإن من الواضح أن البوذية تعارض كل أشكال الحروب، لأنها تضع مبدأ لها أن تجارة الأسلحة ووسائل القتل هي وسيلة للحياة سيئة وليست صحيحة.

هذه العوامل الثلاثة للصراط الثماني (الكلام الصحيح، الفعل الصحيح، ووسائل الحياة الصحيحة) هي شأن السلوك الأخلاقي. ينبغي أن نفهم أن السلوك الأخلاقي الصالح الذي يعلمه بوذا يهدف إلى تأمين حياة سعيدة ومتجانسة سواء للأفراد أو للمجتمع. وهذا السلوك الأخلاقي اعتبر مثل الأساس الذي لا بد منه لكل إنجاز أكثر سموً ورفعة، فما من تنمية روحية ممكنة بدون هذه القاعدة الأخلاقية.

تأتي بعد ذلك التربية العقلية (أو الترويض العقلي) التي تتضمن أيضاً ثلاثة عوامل للصراط الثماني: المجهود الصحيح، الانتباه الصحيح، والتركيز الصحيح.

أما المجهود الصحيح فهو الإرادة النشيطة 1 - لإقامة عائق أمام ظهور حالات عقلية سيئة ومريضة. 2 - للتخلص من الحالات المشؤومة الموجودة أصلاً في الإنسان. 3 - لإظهار حالات عقلية جيدة وسليمة لم تبدأ بالظهور. 4 - لتنمية الحالات العقلية الجيدة والسليمة التي ظهرت وإيصالها إلى الكمال. وأما الانتباه الصحيح فهو موجود في انتباه يقط. وينبغي الأخذ بعين الاعتبار. 1 - نشاطات الجسد. 2 - نشاطات الأحاسيس والانفعالات. 3 - نشاطات العقل. 4 - نشاطات الأفكار والنوايا والمدارك والأشياء.

إن ممارسة التركيز على عملية التنفس. تعتبر من التدريبات المعروفة فيما يتعلق بالجسد، وقد تمت ممارستها من أجل التنمية

العقلية. إلا أن ثمة طرقات أخرى لتنمية الانتباه في علاقته مع الجسد كوسائل للتأمل.

أما ما يتعلق بالأحاسيس والانفعالات فيجب أن نفهم بوضوح أشكالها كلها، سارة أو مزعجة أو حيادية، كيف تظهر فينا وكيف تختفي.

وفيما يتعلق بالنشاطات العقلية ينبغي أن نفهم ما إذا كان العقل متيقظاً بدافع من الشهوة أم لا، ما إذا كان مأخوذاً بالبغضاء أم لا، ما إذا كان مخدوعاً بوهم أم لا، ما إذا كان شارد أو مركّزاً... الخ. وهكذا يجب أن نكون متنبهين لكل حركات العقل، وأن نستهدف الطريقة التي تظهر بها وتختفي.

وأخيراً ماذا عن الأفكار والنوايا والمدارك والأشياء. إن علينا أن نستهدف طبيعتها ونعرف كيف تظهر وكيف تختفي، كيف تنمو وكيف تزول وتُدْمَر. وهكذا دواليك...

هذه الأشكال الأربعة للتدريب العقلي، للتأمل، عولجت بتفاصيلها في «أحاديث عن بناء الانتباه».

العامل الثالث الأخير عن التدريب العقلي هو التركيز الصحيح الذي يقود إلى مراحل «الذيانا» الأربع التي نشير إليها عموماً تحت اسمي الذعر والنكوص. في المرحلة الأولى من «الذيانا» تُطرد الرغبات الولهانة وبعض النوايا المريضة كالشبق والعدوانية وفتور الهمة والقلق والإثارة والشك. ويُحتفظ بمشاعر الفرح والغبطة وبعض النشاطات العقلية. وفي المرحلة الثانية تختفي كل النشاطات العقلية بينما ينمو الهدوء و«التركيز الموحد» للعقل، ومع ذلك فإن مشاعر الفرح والغبطة (السعادة) يحتفظ بها أيضاً. وفي المرحلة الثالثة يختفي أيضاً شعور الفرح الذي هو شعور نشيط وفعال، بينما تبقى حالة السعادة مع لا مبالاة واعية. وأخيراً في المرحلة الرابعة من «الذيانا» تختفي كل المشاعر حتى مشاعر السعادة أو التعاسة. ووحدهما اللامبالاة والانتباه المحض يبقيان.

وهكذا يكون العقل قد تربى وتدرّب ونما عن طريق الجهد الصحيح والانتباه الصحيح والتركيز الصحيح.

والآن نكون قد ألقينا نظرنا على العوامل الستة (3، 4، 5، 6، 7، 8) من الصراط الثماني والتي هي موضوع السلوك الأخلاقي والتربية العقلية، أما العاملان الباقيان للدراسة وهما النية الصحيحة والفهم الصحيح فهما اللذان يشكلان الحكمة. أما النية الصحيحة (السليمة) فهي تتعلق بنوايا التخلي والانفصال غير الأناني، ونوايا المحبة واللاعنف الممتدة على جميع الكائنات. ومن المهم جداً والمفيد جداً أن نلاحظ أن نوايا الانفصال غير الأناني، والمحبة واللاعنف هي مجتمعة في الحكمة. وهذا يرينا بوضوح أن حكمة حقيقية يجب أن تكون متضمنة هذه الصفات النبيلة، وأن كل نوايا الرغبة الأنانية والعنصرية والكراهية والقسوة هي نتيجة لفقدان الحكمة في كل مجالات الحياة الشخصية والاجتماعية والسياسية.

وأما الفهم الصحيح فيقوم على فهم الأشياء كما هي، وإنما هي الحقائق الأربع النبيلة التي تفسر هذه الأشياء كما هي. وهكذا فإن الفهم الصحيح يرجع في النهاية إلى فهم الحقائق الأربع النبيلة. وهذا الفهم هو الحكمة الأعلى التي ترى الواقع الأسمى. ويوجد بحسب البوذية نوعان من الفهم الصحيح: فما نسميه بوجه عام فهماً هو نوع من المعرفة، ذاكرة متراكمة، الإمساك العقلي بموضوع اعتماداً على بعض المعطيات، وهذا ما يعرف في البوذية تحت اسم «المعرفة بحسب»، وهو غير عميق. أما الفهم الحقيقي العميق فهو يسمى «الاختراق»، وهو أن يرى الشيء في طبيعته الحقيقية بدون اسم وبدون ملصقة عليه. وهذا الاختراق ليس ممكناً إلا عندما يتحرر العقل من كل رجس، ويكون قد تطور تماماً عن طريق ممارسة التأمل.

بعد هذا العرض الصغير للصراط نرى أنه طريقة للحياة يمكن اتباعها وممارستها وتنميتها على يد كل فرد. هو تربية للجسد

والحديث والفكر، تنمية وتطهير للذات بواسطة الذات نفسها. وهذا ليس فيه ما يرى مع الإيمان والصلاة والعبادة أو الطقوس. وبهذا المعنى إذن هو لا يحتوي على شيء يمكن أن يسمى «دينيّاً» في المصطلح الشعبي. إنه صراط يقود إلى فهم الواقع الأسمى، إلى إتمام الحرية والسعادة والسلام عن طريق الكمال الأخلاقي والروحي والعقلي.

في البلاد البوذية توجد عادات وطقوس جميلة وبسيطة في المناسبات الدينية. وعلاقتها ضئيلة مع الصراط الحقيقي، ولكنها مفيدة لإرضاء بعض الإنفعالات والاحتياجات الدينية بالنسبة لأولئك الذين هم أقل تقدماً وتساعدهم بالتدرج على طول الصراط.

لدينا أربع وظائف للقيام بها تجاه الحقائق النبيلة الأربع:

فالحقيقة النبيلة الأولى هي دوكها، طبيعة الحياة، ألمها، أتراحها وأفراحها، عدم كمالها وعدم إرضائها وعدم دوامها وعدم جوهريتها. من هذه الناحية تقوم وظيفتنا على فهم ذلك كواقع بشكل واضح وكامل.

والحقيقة النبيلة الثانية هي «أصل دوكها» الذي هو رغبة «عطش» يرافقه كل الأهواء الأخرى والقذارات والأرجاس. والفهم البسيط لهذا الواقع ليس كافياً. هنا وظيفتنا هي تجنب هذه الرغبة «العطش» وإلغاؤها وتدميرها واقتلاعها من جذورها.

والحقيقة النبيلة الثالثة هي «انقطاع دوكها» أو (الكف عن دوكها)، هي النيرقانا، الحقيقة المطلقة، الواقع الأسمى. هنا وظيفتنا هي أن نبلغها ونفهمها.

والحقيقة النبيلة الرابعة هي الصراط المؤدي إلى فهم النيرقانا. إن المعرفة البسيطة للصراط مهما كانت كاملة فهي لا تكفي. ووظيفتنا في هذه الحالة هي أن نتبعه وأن نتمسك به.

مبدأ اللاذات: أنا

إن ما توحى به، بوجه عام، كلمات نفس وذات وأنا، أو كلمة آتمان - إذا أردنا استعمال الكلمة السنسكريتية، هو أنه يوجد في الإنسان جوهر دائم خالد ومطلق، جوهر لايتغير وراء العالم الظاهر المتغير. وبحسب بعض الديانات فإن كل شخص يملك مثل هذه النفس المنفصلة عن جسده التي خلقها الله والتي تحيا في النهاية بعد الموت حياة أبدية في جهنم أو النعيم، وإن مصيرها مرتبط بخالقها. وبحسب ديانات أخرى فإنها تجتاز حيوات كثيرة حتى تتطهر تماماً وينتهي بها المطاف أخيراً إلى الله أو البراهمان، النفس العالمية أو آتمان التي انبثقت منها في الأصل. وهذه النفس أو الذات في الإنسان هي التي تفكر الأفكار، هي التي تحسّ الأحاسيس وهي التي تتلقى الثواب والعقاب على كل الأعمال الصالحة منها والطالحة. وهذا الفهم يسمى فكرة الذات.

والبوذية وحدها في تاريخ الفكر الإنساني هي التي تتجه إلى إنكار وجود مثل هذه النفس أو الذات أو الآتمان. فبحسب تعاليم بوذا إن فكرة الذات هي اعتقاد خاطئ ووهمي لاعلاقة له أبداً بالواقع وإنها سبب الأفكار الخطرة عن «الأنا» أو «يخصني»، وعن الرغبات الأنانية النهمة التي لاترتوي، وعن الارتباط، والكراهية وسوء النية ومشاعر العجرفة والأنانية وغيرها من الأقدار والأرجاء

والمشاكل. وهي منبع كل اضطرابات العالم بدءاً من المنازعات الشخصية وانتهاء إلى الحروب بين الأمم. وبالاختصار أننا نستطيع أن نسند إلى هذه النظرة الخاطئة كل شرور العالم.

هنالك فكرتان متجذرتان نفسياً في المرء: حماية الذات والمحافظة على الذات. أما حماية الذات فقد خلق الإنسان إلهاً يرتبط به من أجل حماية نفسه وسلامته وأمنه مثلما يتعلق الطفل بأبويه. وأما المحافظة على الذات فقد تصور الإنسان فكرة عن نفس خالدة أو «آتمان» تعيش حياة أبدية. وفي جهله وضعفه وخوفه ورغبته شعر الإنسان بحاجته إلى هذين الأمرين ليطمئن ويتعزى. ومن أجل ذلك يتشبث بهما بكل تعصب وضراوة.

وتعاليم بوذا لاتعترف بهذا الجهل والضعف وهذا الخوف وتلك الرغبة، بل تسعى إلى تنوير الإنسان بأن يلغي ذلك ويدمره ويقتلعه من جذوره نفسها. فبحسب البوذية إن أفكار الإله والنفس هي أفكار خاطئة وفارغة. ومع أنها انتشرت انتشاراً واسعاً كنظريات إلا أنها ليست إلا إسقاطات عقلية حاذقة ومغلقة في عبارات فلسفية وميتافيزيكية معقدة. وهذه الأفكار مجذرة بعمق في الإنسان، وهي قريبة منه وعزيزة عليه جداً حتى أنه لايجب أن يسمع ولايريد أن يفهم أي تعاليم تخالفها مهما كان من شأنه.

كان بوذا يعرف ذلك، وقد قال ما نصه إن تعاليمه ستمضي «معاكسة للتيار» مخالفة الرغبات الأنانية للإنسان. بعد أربعة أسابيع فقط من «استنارته»، جلس تحت شجرة بانيان كبيرة، ففكر بما يلي: «لقد أدركت هذه الحقيقة العميقة الصعبة على الرؤية والصعبة على الفهم... وهي مفهومة فقط من الحكماء... أما بنو الإنسان الذين استغرقهم الأهواء وأسكرتهم كتلة من الظلماء فهم لا يستطيعون أن يروا هذه الحقيقة التي تسير معاكسة للتيار، تلك الحقيقة السامية العميقة المرفهة العسيرة على الفهم».

وعندما أصبحت لديه هذه الأفكار تردد بوذا لحظة مسألاً

نفسه ما إذا كان من العبث أن يجرب عرض هذه الحقيقة التي تحقق منها على الناس. عند ذلك شبّه الناس بمستنقع لنبات اللوتوس فيه لوتوسات تحت الماء، وأخرى لم تلمس منه إلا السطح، وثالثة انتصبت فوق الماء ولم تعد ملامسة له. وعلى هذه الشاكلة نفسها يوجد في العالم أناس على مستويات مختلفة من التطور، ولا بد أن بعضهم سيفهم الحقيقة. وعند ذلك قرر بوذا أن يعلم.

إن مبدأ «الأناتّا» أو اللادات هو النتيجة الطبيعية اللازمة لتحليل المجموعات الخمس ولتعليم التوليد المشروط.

لقد رأينا سابقاً في مناقشة الحقيقة النبيلة الأولى أن ما أسميناه كائناتاً أو شخصاً يتألف من خمس مجموعات AGREGATS، وأننا عند تحليلها وعند فحصها لم نجد وراءها ما يمكن أن نعتبره «أنا» أو «آتمان» أو «ذات» أو شيئاً يبقى ثابتاً بدون تغيير. وتلك هي الطريقة التحليلية. والنتيجة نفسها وصلنا إليها على مبدأ التوليد المشروط الذي هو الطريقة التركيبية، التي بموجبها لا يوجد في العالم شيء مطلق طالما أن كل شيء مشروط ونسبي ومترابط. وتلك هي النظرية البوذية عن النسبية.

وقبل أن نصل إلى مسألة «الأناتّا» في حد ذاتها يحسن أن نقدم فكرة مختصرة عن التوليد المشروط. إن أساس هذا المبدأ يمكن تقديمه في صيغة بسيطة من أربعة أسطر:

عندما يكون هذا موجوداً فهو موجود.

عندما يكون هذا ظاهراً فهو يظهر.

عندما يكون هذا غير موجود فهو غير موجود.

عندما يكون هذا منقطعاً فهو ينقطع.

على هذا الأساس من المشروطية والنسبية والترابط فإن الوجود كله، واستمرار الحياة وانقطاعها فسرت جميعها في صيغة مفصلة سميت «التوليد المشروط» وله اثنا عشر عاملاً:

1 - بالجهل تُشترط الأعمال الإرادية أو التشكيلات الجبرية (أو القدرية).

2 - بالأعمال الإرادية يُشترط الوعي.

3 - بالوعي تُشترط الظواهر العقلية والجسدية.

4 - بالظواهر العقلية والجسدية تُشترط الملكات الست (أي الحواس الخمس والعقل).

5 - بالملكات الست يُشترط الاحتكاك (الحسي والعقلي).

6 - بالاحتكاك يُشترط الإحساس

7 - بالإحساس تُشترط الرغبة «العطش»

8 - بالرغبة «العطش» يُشترط الحجز أو الأسر.

9 - بالحجز أو الأسر يُشترط تطور الصيرورة.

10 - بتطور الصيرورة تُشترط الولادة.

11 - بالولادة يشترط:

12 - الضعف والموت والنواح والآلام... الخ.

وهكذا تظهر الحياة وتوجد وتستمر. وإذا أخذنا هذه الصيغة في منحائها المعاكس نصل إلى انقطاع التطور، إلى الانقطاع الكامل للجهل. وتنقطع الأعمال الإرادية والتشكيلات الجبرية (القدرية). وبانقطاع النشاطات الإرادية ينقطع الوعي... وبانقطاع الولادة ينقطع (يتوقف) الضعف والموت والنواح...

إلا أنه يجب أن نفهم بوضوح أن كل واحد من هذه العوامل مشروط أيضاً كما هو شرط. فهي كلها إذن نسبية ومتراطة ولا شيء مطلق ومستقل. ومن هنا نرى أن كل سبب أولي ليس مقبولاً من البوذية كما رأينا فيما سبق. والتوليد المشروط يجب أن يُنظر إليه كدائرة وليس كسلسلة.

إن مسألة حرية الاختيار (الإرادة الحرة) شغلت حيزاً هاماً في الفكر الغربي وفلسفته. ولكن هذه المسألة لا تُطرح بموجب التوليد المشروط، ولا يمكن أن تطرح في الفلسفة البوذية. فبما أن مجموع

الوجود نسبي ومشروط ومتربط فكيف للإرادة وحدها أن تكون حرة؟ فالإرادة مثل كل فكر آخر هي مشروطة. و«الحرية» المدعاة نفسها هي شيء مشروط ونسبي. فإذا كان ثمة اختيار حر فهو أيضاً مشروط ونسبي، فليس ثمة ماهو، مهما كان شأنه، حر مطلق جسدياً ولا عقلياً طالما أن كل شيء مترابط ونسبي. إن الاختيار الحر يعني إرادة مستقلة عن الشروط، مستقلة عن السبب والمؤثرات. فكيف لإرادة، أو أي شيء، يمكنها أن تظهر بدون شروط، خارج السبب والمؤثرات، بينما مجموع الوجود مشروط ونسبي وخاضع لقانون السبب والمؤثر؟ وهنا أيضاً يكون الاختيار الحر، في أساسه، على علاقة مع أفكار الإله والنفس والعدالة والثواب والعقاب. وليس ما يسمى بالاختيار الحر وحده غير حر، بل الفكرة نفسها عن الاختيار الحر ليست متحررة من الشروط.

بحسب مبدأ التولد المشروط، وكذلك بحسب تحليل الكائن إلى خمس مجموعات AGREGATS فإن فكرة جوهر يبقى خالداً في الإنسان، أو خارج الإنسان، ويسمى آتمان أو أنا أو نفس أو ذات تعتبر اعتقاداً خاطئاً وإسقاطاً عقلياً. وذلك هو المبدأ البوذي عن الأناتا أو اللانفس أو اللادات.

ولكي نتجنب الغموض يجب الإشارة هنا إلى أنه يوجد نوعان من الحقيقة: الحقيقة الاصطلاحية والحقيقة النهائية. فعندما نستعمل في الحياة الجارية تعابير من أمثال «أنا» و«أنت» و«كائن» و«شخص» فلسنا نقول كذباً مخالفاً لواقع أنه لاوجود لمثل هذه «الذات» أو «الكائن»، بل نقول حقيقة تنطبق على اصطلاح الناس. أما الحقيقة النهائية فهي أنه لاوجود في الواقع لأنا أو لكائن. وهذا يعني أنه يوجد اصطلاحياً كائن، ولكن لاوجود له في الواقع أو في الجوهر.

«إن إنكار آتمان لايفنى هو خاصة مميزة مشتركة لكل نظام دوغماتي عقائدي مهما كان واسعاً أو قليل الانتشار، وليس بعد ذلك

من سبب للدعاء بأن هذه السنّة البوذية التي هي على اتفاق كامل في هذه النقطة، إنما هي منحرفة عن التعاليم الأصلية لبوذا».

فمن المثير للفضول إذن ظهور محاولة في المدة الأخيرة على يد بعض الباحثين لأن يدخلوا خفية في تعاليم بوذا فكرة عن «الذات» مناقضة تماماً لفكر البوذية نفسه. هؤلاء الباحثون يعجبون ببوذا ويحترمونه ويجلونه هو وتعاليمه، ولكنهم لا يستطيعون أن يتخللوا أن بوذا الذي يعتبرونه المفكر الأكثر وضوحاً والأكثر عمقاً يمكنه أن ينكر وجود آتمان أو «ذات» هم بحاجة ماسة إليها. فهم يسعون بشكل لاشعوري إلى مساندة بوذا لهم في حاجتهم لهذا الوجود الأبدي. طبعاً ليس في «ذات» صغيرة مسكينة شخصية مع حرف صغير للذات في أولها، بل في «ذات» كبيرة لها في أولها ذال كبيرة.

ويحسن أن نقول بصراحة إن بإمكانهم الاعتقاد بوجود آتمان أو «ذات»، بل وحتى أن يذهبوا إلى القول بأن بوذا أخطأ تماماً بإنكاره وجود آتمان، ولكن من المؤكد أنه ليس حسناً لأي إنسان أن يحاول إدخال فكرة في البوذية لم تكن مقبولة قط من بوذا في النصوص الأصلية القديمة الموجودة لدينا.

إن الديانات التي تعتقد بإله وبنفس لم تخف أي سر عن هاتين الفكرتين، بل على العكس من ذلك أعلنتهما بشكل دائم ومتكرر وبالصيغ الأكثر فصاحة. فلو أن بوذا قبل هاتين الفكرتين الهامتين في كل الديانات الأخرى لأعلنهما قطعاً على الجماهير، كما تحدث عن الأمور الأخرى، ولم يخبئهما لكي لاكتشفا إلا بعد موته بخمسة وعشرين قرناً.

لقد غضب الناس من فكرة أنه بموجب تعاليم بوذا عن الأناتا أن الذات التي تخيلوا أنهم يملكونها ستمدّر، ولم يكن بوذا يجهل ذلك.

ففي إحدى المرات سأله أحد الكهنة: «يا سيدي، هل توجد الحالة التي يتعذب فيها بعضهم من أنه لايجد شيئاً دائماً فيه؟» - «بلى، أيها البهيكهو (التلميذ)، هذه الحالة توجد. فالإنسان عنده

الفكرة التالية: «العالم هو هذه الآتمان «الذات». وبعد الموت سأكون ذلك الخالد الذي يبقى ويستمر، الذي لا يتغير، وسأبقى كذلك إلى الأبد». ثم سمع واحداً من تلاميذه يبشر بمبدأ ينزع إلى التدمير الكامل لكل نظرة تأملية. ينزع إلى استئصال الرغبة «العطش»، ينزع إلى التخلي، إلى الانقطاع، إلى النيرقانا. عند ذلك فكر هذا الرجل: «بذلك أكون قد انعدمت، قد دُمُرت، لم أعد شيئاً»، وعندئذ أن وتغذب وناح وبكى ضارباً صدره بيديه وغدا تائهاً ضائعاً. وهكذا إذن، أيها البهيكهو، توجد الحالة التي يتغذب فيها أحد الناس لأنه لا يوجد شيء دائم فيه».

وفي مكان آخر قال بوذا: «أيها البهيكهو، هذه الفكرة: لن أكون، لن أملك شيئاً، هي فكرة مخيفة بالنسبة للرجل العادي الذي لم يتتقف».

أولئك الذين يريدون أن يجدوا «ذاتاً» في البوذية يفكرون على الشكل التالي: حقاً أن البوذية تحلل الكائن إلى مادة ومشاعر وإدراك وتشكيلات عقلية ووعي، وتعلن أن أياً من هذه الأشياء ليس «الذات»، ولكنها لم تقل إنه ليس «للذات» وجود البتة سواء في الإنسان أو في مكان آخر خارج مجموعاته AGREGATS ولا شيء غيرها. ولم يقل في أي مكان إنه يمكن أن يوجد في الكائن شيء آخر غير هذه المجموعات الخمس.

والثاني أن بوذا ينكر منهجياً في عبارات لا ليس فيها وفي أكثر من مكان وجود «آتمان» أي نفس، ذات، أنا في الإنسان أو في خارجه أو في أي مكان من العالم، وإليك بعض الأمثلة:

في الدامآبادا يوجد ثلاثة أبيات من الشعر في غاية الأهمية وهي جوهريّة في تعاليم بوذا.

الإثنان الأولان منها يقولان:

«كل الأشياء المشروطة ليست دائمة»

«كل الأشياء المشروطة هي دوكها»

ويقول البيت الثالث:

«كل (الذامآ) بلا ذات».

هنا يجب أن نلاحظ بكل عناية أنه في البيتين الأولين استعملت كلمة (أشياء مشروطة)، ولكن في المكان نفسه من البيت الثالث استعملت كلمة (ذامآ). فلماذا لم تُستعمل في البيت الثالث كلمة (أشياء مشروطة) كما حدث في البيتين الأولين، ولماذا استعملت كلمة (ذامآ)؟ هنا النقطة الأساسية في كل المسألة.

إن لفظة SAMKHARA (أشياء مشروطة) إنما تمثل المجموعات الخمس، وكلها مشروطة ومترابطة، أي حالات وأشياء نسبية من الناحيتين الجسدية والعقلية. فلو أن البيت الثالث قال: «كل السامخارا (الأشياء المشروطة) هي بلا ذات» فربما فكر المرء أنه رغم أن الأشياء المشروطة هي بلا ذات فيمكن مع ذلك أن توجد ذات خارج الأشياء المشروطة، خارج المجموعات الخمس. فمن أجل تفادي هذا التفسير الخاطئ استعملت كلمة (ذامآ) في البيت الثالث.

إن لكلمة (ذامآ) معنى أوسع بكثير من كلمة (سامخارا). فليس في كل الألفاظ البوذية لفظ أوسع من (ذامآ). فهو يتضمن ليس الأشياء والحالات المشروطة وحسب، بل كذلك غير المشروطة، المطلق، النيرقانا. ولا يوجد شيء في العالم أو خارجه، صالحاً أو طالحاً، مشروطاً أو غير مشروط، نسبياً أو مطلقاً، لا يتضمنه هذا اللفظ. لذلك كان من الواضح تماماً أنه بحسب هذا النص المذكور: «كل الذامآ هي بدون ذات» ليس من ذات أو آتمان، ليس في المجموعات الخمس فحسب، بل في أي مكان خارجها أو غيرها.

وهذا يعني بحسب تعاليم بوذية الثيراقادا (وهي البوذية الأصلية المنتشرة في سيلان وجنوبي شرقي آسيا) أنه ما من وجود

للذات لا في الأشخاص ولا في (الذات). إن فلسفة بوذية الماهايانا (وهي البوذية المتطورة المنتشرة في الصين واليابان) تساند تماماً في هذه النقطة بدون أقل فارق ما ذهبت إليه الثيراقادا.

في أحد مصادر البوذية الأساسية قال بوذا موجهاً الكلام إلى تلاميذه:

«أيها البهيكهو، اقبلوا نظرية النفس التي لا تسبب آلاماً ولا عويلاً ولا أحزاناً ولا مصائب لمن يقبلها. ولكن هل تعرفون، أيها البهيكهو، مثل هذه النظرية عن النفس التي لا تسبب آلاماً ولا عويلاً ولا أحزاناً ولا مصائب لمن يقبلها؟

- قطعاً لا، أيها السيد.

- حسن، أيها البهيكهو، ولا أنا أيضاً، أيها البهيكهو، لا أعرف نظرية عن النفس لا تسبب آلاماً ولا عويلاً ولا أحزاناً ولا مصائب لمن يقبلها».

فلو أن ثمة أية نظرية عن النفس قبلها بوذا لكان من المؤكد أن يعرضها هنا طالما أنه سأل تلاميذه أن يقبلوا نظرية عن النفس التي لا تسبب آلاماً. ولكن حسبما قال بوذا ليس ثمة مثل هذه النظرية عن النفس، وإن أية نظرية عن النفس مهما كان من أمرها، ومهما كانت حاذقة وسامية، فهي خاطئة ووهمية وتخلق كل أنواع المشاكل وتجرح معها الآلام والعويل والأحزان والمصائب.

وإذا تتبعنا حديثه فإنه قال في المصدر نفسه:

«أيها البهيكهو، إذن لا النفس ولا شيء يتعلق بالنفس يمكن أن يكون موجوداً حقاً وواقعاً. وهذه النظرة التأملية: «هذا العالم هو هذا الآتمان (النفس). وبعد الموت سأكون ذلك، أي دائماً وباقياً ومستمراً لا أتغير، وسأبقى كذلك إلى الأبد»، أليست غير معقولة كلياً؟».

هنا قال بوذا بطريقة واضحة كل الوضوح إنه لا يمكن للآتمان

أو النفس أو الذات أن تكون موجودة في الواقع، وإن من غير المعقول الاعتقاد بشيء مثل ذلك.

أولئك الذين يبحثون عن ذات في تعاليم بوذا يعطون بعض الأمثلة التي ترجموها في البداية خطأ وفسروها تفسيراً خاطئاً. مثال ذلك أحد أبيات الشعر وردت فيه كلمة ATTA التي ترجموها بكلمة ذات، فأصبحت ترجمة بيت الشعر هي «الذات هي سيدة الذات»، وقد فهموا من ذلك أن هذا البيت معناه أن «الذات الكبيرة هي سيدة الذات الصغيرة».

أولاً هذه الترجمة غير صحيحة لأن ATTA هنا لاتعني «ذاتاً» بمعنى نفس. ففي اللغة البالية كلمة أتا تستعمل غالباً بمعنى ضمير الفاعل أو ضمير غير محدود، عدا بعض الحالات الخاصة والفلسفية، أما في الاستعمال الدارج، كما ورد في بيت الشعر السابق، وفي كثير من الأماكن الأخرى فهي تستعمل كما ذكرنا بمعنى ضمير الفاعل أو ضمير غير محدود مثل «أنا نفسي» أو «أنت نفسك» أو «هو نفسه»... الخ.

ثم إن كلمة «ناثو NATHO» الواردة في بيت الشعر نفسه، لاتعني «سيد» بل «ملجأ» أو «سند» أو «مساعدة» أو «حماية». وهكذا يصبح المعنى الصحيح لبيت الشعر المذكور هو: «كل امرئ هو ملجأ نفسه» أو «كل امرئ هو مساعد نفسه» أو «كل امرئ هو سند نفسه» وليس لذلك أية صلة بالنفس أو الذات بمعناها المتيافيزيقي، بل هو يعني بكل بساطة أنه يجب على المرء أن يعتمد على نفسه لا على الآخرين.

وثمة مثال آخر في محاولة إدخال فكرة «الذات» في تعاليم بوذا توجد في جملة معروفة لبوذا ترجمتها الحرفية مايلي: «أمكث صانعاً من نفسك جزيرتك» أو «سندك أو ملجأك، ولا تجعل من شخص آخر ملجأ لك». وقد وردت في هذه الجملة أيضاً كلمة ATTA فترجموا الجملة كما يلي «أمكث جاعلاً «الذات» ملجأ لك».

ولا يمكن فهم المعنى الكامل ولا المغزى لهذه النصيحة التي قالها بوذا إلى أناندا إذا لم نأخذ بعين الاعتبار خلفية المناسبة وكامل الحدث الذي أخذ منه هذا الكلام.

في ذلك الوقت كان بوذا يقطن في قرية اسمها بيلوفا وذلك قبل موته بثلاثة أشهر. في ذلك العصر كان له من العمر ثمانون عاماً ويشكو من مرض جدّي ويكاد يعتبر في عداد الأموات. ولكنه فكر أنه من غير المناسب أن يموت دون أن يخبر بذلك تلاميذه المقربين الأعزاء. وهكذا وبكل شجاعة وتصميم تغلب على آلامه وقهر مرضه وتغافى. ولكن صحته كانت عارضة. وبعد شفائه كان في أحد الأيام يجلس في الظل خارج مسكنه، فجاء إليه أناندا أخلص تلاميذه فجلس إلى جانبه وقال له: «يا سيدي، لقد سهرت على صحة السعيد، سهرت عليه في مرضه، ولكن عندما رأيت مرض السعيد أصبح الأفق مظلماً أمامي ولم تعد ملكاتي واضحة. ومع ذلك كان عندي بعض العزاء: فكرت أن السعيد لن يختفي قبل أن يعطي تعليماته المتعلقة بنظام السانغا.

عند ذلك تحدث بوذا، وقد امتلأ قلبه بالرحمة والمشارع الإنسانية، تحدث بكل طيبة إلى تلميذه المخلص المحبوب: «أناندا، ماذا تنتظر مني عن نظام السانغا؟ لقد علّمت الحقيقة دون تفريق بين ماهو باطني وظاهري. ولا يملك التااغاتا (أي بوذا)، فيما يتعلق بالحقائق، ما يشبه الباطن والظاهر في قبضة المعلم المغلفة. حقاً يا أناندا، إذا كان هنالك من يفكر بقدرته على إدارة السانغا وأن السانغا يمكن أن ترتبط به فليعط تعليماته. أما التااغاتا (بوذا) فليس لديه مثل هذه الفكرة، فلم إذن يترك تعليمات تتعلق بالسانغا؟ أناندا، أنا عجوز الآن، عندي ثمانون عاماً، وكعربة مستعملة تحتاج إلى إصلاحات لتستمر في الخدمة، كذلك يبدو لي أن جسد التااغاتا يحتاج إلى إصلاحات ليستمر في الخدمة. إذن، يا أناندا «امكث وأجعل من نفسك جزيرتك «سندك»، اجعل من نفسك، وليس من أحد

غيرك، ملجأك. اجعل من الذامّا (أي الحقيقة) جزيرتك (سندك)، من الذامّا ملجأك، وليس من شيء آخر».

ما أراد بوذا شرحه لأناندا واضح كل الوضوح. أناندا كان حزيناً وخائراً النفس. ظن بأنهم سيجدون أنفسهم وحيدين بدون سند ولا ملجأ ولا رئيس بعد موت المعلم الكبير. وهكذا بعث بوذا فيه العزاء والشجاعة والثقة عندما قال له إن عليهم أن يعتمدوا على أنفسهم وعلى الذامّا (الحقيقة) التي علمهم إياها، وليس على شخص آخر ولا شيء آخر. فهنا إذن تصبح مسألة آتمان أو ذات ميتافيزيقية هي قطعاً خارج المناسبة.

وإضافة إلى ذلك شرح بوذا لأناندا كيف يمكن للمرء أن يكون جزيرة نفسه أو ملجأ نفسه، وكيف يمكن أن يصنع من الذامّا جزيرته أو ملجأه: ذلك عن طريق الثقافة والانتباه إلى الجسد والمشاعر والعقل والأمور العقلية. وهنا أيضاً لا وجود لأية كلمة تتعلق بآتمان أو بذات.

وثمة أيضاً مثال آخر يستعمله أولئك الذين يحاولون أن يجدوا آتمان في تعاليم بوذا.

في إحدى المرات كان بوذا جالساً تحت شجرة في غابة على طريق بينارس، في أوروڤيلا. في ذلك اليوم قام بنزهة إلى تلك الغابة نفسها ثلاثون من الأصدقاء الأمراء الفتيان ومعهم زوجاتهم الشابات، ومن بينهم واحد ليس متزوجاً، ولكنه أتى معه بغانية. وبينما كانوا يسمرون ويتسلون سرقت هذه الغانية أشياء ثمينة واختفت. وبينما كانوا يبحثون عنها في الغابة رأوا بوذا جالساً تحت شجرة فسألوه عما إذا كان قد رأى هذه المرأة. فسألهم بوذا عن السبب فرووا له الحادثة. عند ذلك سألهم بوذا: «ماذا تظنون أيها الفتية، ما هو أفضل لكم، البحث عن امرأة أم البحث عن أنفسكم؟».

فالسؤال هنا بسيط وطبيعي أيضاً، وليس من سبب لإدخال فكرة الآتمان أو الذات الميتافيزيقية البعيدة في هذه القضية.

وقد أجابوه أن من الأفضل لهم البحث عن أنفسهم. عندئذ سألهم بوذا أن يجلسوا حوله وعرض عليهم «الذامًا» (أي الحقيقة). وبحسب هذه القصة وما بشرهم به وما هو موجود في النص الأصلي، ليس من كلمة تشير إلى موضوع الآتمان.

ولقد كُتب الكثير، وقام الكثير من النقاش وبُذِل الكثير من التأمل والتفكير حول موضوع صمت بوذا عندما سألته أحد الضالين، واسمه فاكشاغوتا، ما إذا كان يوجد آتمان أم لا، وإليكم القصة: أتى فاكشاغوتا إلى بوذا وسأله:

«أيها المبجل غوتاما، هل من وجود لآتمان؟». فبقي بوذا صامتاً.

«إذن، أيها المبجل غوتاما، ألا يوجد آتمان؟» وبقي بوذا صامتاً أيضاً. عندئذ نهض فاكشاغوتا ومضى في سبيله.

بعد ذهاب هذا الضال، سأل أناندا بوذا لماذا لم يجب على سؤال فاكشاغوتا. وشرح بوذا موقفه: «أناندا، عندما طرح علي فاكشاغوتا الضال سؤاله: أيها المبجل غوتاما هل توجد ذات؟ فلو أنني أجبت: نعم توجد ذات، فهذا معناه اعتناق لمذهب هؤلاء المعتزلة والبراهمانا الذين يدعمون النظرية الأبدية.

«وعندما طرح علي فاكشاغوتا الضال، يا أناندا، سؤاله: أيها المبجل غوتاما، ألا توجد ذات؟ فلو أنني أجبت: ألا وجود للذات، عندئذ، يا أناندا، ألا يكون ذلك متفقاً مع معرفتي بأن كل الذامًا (الحقائق) هي بدون ذات.

- بالتاكيد يا سيدي.

- وإلى ذلك، يا أناندا، عندما طرح علي فاكشاغوتا الضال سؤاله: أيها المبجل غوتاما، ألا توجد ذات؟ فلو أنني أجبت: كلا لا توجد ذات، فيمكن أن يسبب جوابي هذا لفاكشاغوتا الضال

غموضاً أكبر أيضاً، هو المرتبك الضائع في الأصل. ذلك لأنه يمكن أن يفكر: سابقاً كان لي فعلاً آتمان، والآن لم تعد عندي».

فالسبب الذي بقي من أجله بوذا صامتاً هو الآن في تمام الوضوح، ولكنه سيكون أكثر وضوحاً إذا أخذنا بعين الاعتبار خلفية المناسبة والطريقة التي كان بوذا يعالج فيها الأسئلة والسائلين، وهذان الأمران مجهولان من أولئك الذين ناقشوا هذه المشكلة.

فبوذا لم يكن آلة تعطي الأجوبة دون أن تأخذ بعين الاعتبار نوع الأسئلة وحالة الذين يطرحونها. إنه معلم عملي مليء بالعطف والحكمة. فلم يكن يردّ على الأسئلة من أجل أن يظهر ذكاءه ومعرفته، بل ليساعده ذلك الذي طرحها ويدله على طريق تحقيقها. فهو يتحدث إلى الناس وفي ذهنه مستوى تطورهم وميولهم وما يدور في أذهانهم وصفاتهم واستعداداتهم لفهم موضوع محدد.

وبحسب ما يرى بوذا ثمة أربع طرائق لمعالجة الأسئلة. 1 - ينبغي الرد على بعضهم بشكل مباشر. 2 - وعلى آخرين يرد بعد تحليلهم. 3 - وعلى آخرين أيضاً ينبغي الرد بطرح أسئلة مضادة. 4 - وأخيراً هنالك أسئلة ينبغي تركها بدون جواب.

ويمكن أن يكون ثمة عدة طرائق لترك الأسئلة بدون جواب. أولها القول إن سؤالاً خاصاً لا يملك الإجابة عليه أو تفسيره، وذلك كما فعل بوذا مع هذا الفاكشاغوتا نفسه في أكثر من مناسبة عندما طرح عليه تلك الأسئلة الشهيرة عما إذا كان العالم خالداً أم لا، وغير ذلك. وبالطريقة نفسها رد على آخرين. إلا أنه لا يستطيع أن يتصرف هكذا فيما يتعلق بسؤال ما إذا كان يوجد آتمان (ذات) أم لا، لأنه طالما عرضه وناقش به. فلا يمكنه القول «يوجد ذات» لأن ذلك مخالف لمعرفته بأن «كل الذامًا هي بلا ذات». ولم يكن يشاء القول «لا يوجد ذات» لأن هذا الجواب يمكن ألا تكون له ضرورة ولا مسوغ بحيث يجعل المسكين فاكشاغوتا أكثر حيرة واضطراباً في مثل هذا

الموضوع، كما اعترف بذلك فيما سبق، وهو ليس على مستوى أن يفهم فكرة «الأناتا». وإذن من الأولى ترك هذا السؤال بلا جواب والتزام الصمت، فذلك هو الطريقة الأكثر حكمة في هذه الحالة الخاصة.

ولا يجب أن ننسى كذلك أن بوذا كان يعرف فاكشاغوتا من قبل ومنذ مدة طويلة، فليست هذه المرة الأولى التي يأتي إليه فيها هذا السائل الضال. إن المعلم الحكيم المليء بالعطف طالما فكر بهذا الباحث المحترار وأظهر له التقدير. فثمة الكثير من الإشارات في النصوص «الباليّة» (أي المكتوبة باللغة الباليّة) إلى هذا الفاكشاغوتا نفسه وإلى أنه جاء إلى بوذا في كثير من الأحيان وإلى تلاميذه وطرح عليهم أيضاً وأيضاً النوع نفسه من الأسئلة التي تعذبه وتستولي على عقله. ويبدو أن صمت بوذا كان له تأثير أكبر من كل نقاش أو جواب فصيح.

بعض الناس يأخذون «الذات» على أنها مثل ما يسمى بوجه عام «عقل» أو «إدراك». ولكن بوذا قال إن من الأفضل للمرء أن يعتبر جسده على أنه «ذاته» وليس العقل أو الفكر أو الإدراك، لأن الأول يبدو أكثر متانة من الباقيين، فالعقل والفكر والإدراك تتغير دائماً ليلاً ونهاراً بأسرع مما يفعل الجسد.

إنه لشعور غامض «بالأنا» هو الذي يخلق هذه الفكرة عن الذات التي ليس لها أثر من الواقع. ويوجد في (الساميوثا - نيكايا) محادثة رائعة عن هذه النقطة بين واحد من البهيكهو (التلاميذ) اسمه خيماكا وجماعة من البهيكهو.

هؤلاء الكهنة سألوا (خيماكا) ما إذا كان رأى في المجموعات الخمس AGREGATS ذاتاً أو شيئاً يتعلق بالذات. فأجاب خيماكا بالنفي. عندئذ قال البهيكهو إنه إذا كان كذلك فيجب أن يكون واحداً من «الأراھانت» متحرراً من كل رجس. ولكن خيماكا اعترف بأنه رغم أنه لم يجد في المجموعات الخمس ذاتاً أو شيئاً يتعلق بالذات

«فإنني لست أراھانتاً متحرراً من كل رجس. أيها الأصدقاء. فيما يتعلق بالمجموعات الخمس من الارتباط فإن لدي الشعور «بالأنا»، ولكنني لا أرى بوضوح ما إذا كان ذلك هو «الأنا». ثم إن خيماكا فسّر أن ما سمّاه «الأنا» ليس مادة ولا شعوراً ولا إدراكاً ولا تشكيلات عقلية ولا وعياً ولا شيئاً خارج ذلك. ولكن لديه شعور «بالأنا» له علاقة مع مجموعات الارتباط الخمس رغم أنه لا يستطيع أن يرى بوضوح ما إذا كان ذلك هو «الأنا».

وقال إن ذلك مثل رائحة زهرة، وهي ليست رائحة تويجات أو رائحة لون أو رائحة لقاح، بل رائحة الزهرة.

وقد شرح خيماكا، إضافة إلى ذلك، بأنه حتى الشخص الذي بلغ المراحل الأولى من التحقق، فإنه يحتفظ بهذا الشعور «بالأنا». ولكنه بعد ذلك عندما يتقدم فإن هذا الشعور «بالأنا» يختفي هو أيضاً مثلما تختفي رائحة كيماوية من نسيج حديث الغسل بعد بعض الوقت عندما يوضع في صندوق.

هذه المناقشة كانت بالنسبة لهم مفيدة جداً وبارعة جداً إذ بعدها، كما يقول النص، أصبحوا كلهم بما فيهم خيماكا نفسه، أراھانتاً محرّرين من كل رجس لأنهم بذلك تخلصوا أخيراً من «الأنا».

بحسب تعاليم بوذا، شيء جداً كذلك مساندة الرأي الذي يقول «ليس لي ذات» (الذي هو نظرية العدميين) كما هو شيء مساندة الرأي الذي يقول «لي ذات» (الذي هو نظرية الأبديين) لأن كلا الرأيين هما ارتباطات، كلاهما آتيان من فكرة «الأنا» الخاطئة. الموقف الصحيح تجاه مسألة الأناتا ليس في مساندة هذه أو تلك من وجهات النظر أو الرأي، بل في محاولة رؤية الأشياء بطريقة موضوعية كما هي دون إسقاطات عقلية، فروؤية ما يسمونه «أنا» أو «أكون» هي ربط وإدغام بين المجموعتين الجسدية والعقلية اللتين يعملان معاً، ولكن بشكل مستقل في تدفق من التغيرات اللانهائية.

الخاضعة لقانون الأسباب والموثرات والتي ليس فيها شيء دائم وأبدي وبدون تغيير في مجموع الوجود العالمي.

وهنا يوجد سؤال طبيعي يطرح نفسه: إذا لم يكن ثمة آتمان فمن الذي يتلقى نتيجة الكارما (الأعمال)؟ ما من أحد يستطيع الإجابة على هذا السؤال أفضل من بوذا نفسه. فعندما طرح عليه هذا السؤال أحد البهيكهو (التلاميذ) قال بوذا: «لقد علمتكم، أيها البهيكهو، أن تروا الشرطية والظرفية في كل مكان وفي كل شيء».

إن تعاليم بوذا عن الأناتا، أي اللانفس أو اللاذات يجب ألا تعتبر سلبية أو عدمية. وكذلك أمر «النيرفانا»، فهي حقيقة وواقع، والواقع لا يمكن أن يكون سلبياً. إن ما هو سلبى هو الاعتقاد بذات وهمية ليس لها وجود. إن تعليم الأناتا يبطل ظلمة المعتقدات الخاطئة وينجم عنه النور والحكمة. وهو ليس سلبياً. وكما قال أسانغا بحق: «هناك واقع هو أنه لاوجود للذات».

«التأمل» أو الثقافة العقلية: بهافانا

قال بوذا: «أيها البهيكهو، ثمة نوعان من المرض، فما هما هذان النوعان من المرض؟ المرض الجسدي والمرض العقلي. ويبدو أن هنالك أناساً سعداء لأنهم خالون من المرض الجسدي خلال عام أو عامين، أو ربما خلال مئة عام أو أكثر. ولكن، أيها البهيكهو، نادرون في هذا العالم من هم معصومون ولو للحظة واحدة من المرض العقلي، عدا أولئك الذين هم معصومون من الأرجاس العقلية (وهو يعني الأراهاننت)».

إن تعاليم بوذا، وبوجه خاص طريقه إلى «التأمل»، تهدف إلى إيجاد حالة من الصحة العقلية الكاملة، من التوازن والاطمئنان. ومن المؤسف جداً أنه ليس من قطاع من تعاليمه أسىء فهمه ووضع في التطبيق بشكل خاطئ مثل «التأمل»، سواء من قبل البوذيين أو سواهم. فما أن تُذكر كلمة «التأمل» حتى تقفز إلى الذهن فكرة التخلي عن النشاطات اليومية الحياتية تجاه المجتمع. إن «التأمل» الحقيقي البوذي لا يعني أبداً هذا النوع من التخلي والهروب. فتعاليم بوذا في هذا الموضوع فهمت فهماً سيئاً أو فهماً قليلاً جداً حتى أن طريق «التأمل» أدى فيما بعد إلى نوع من «الطقس» أو «الشعائر» التي تمارس بشكل آلي وروتيني.

كثير من الناس يهتمون بالتأمل أو «اليوغا» رغبة منهم في

اكتساب قدرات عقلية أو روحية (صوفية)، أو لاكتساب «العين الثالثة» التي لا يملكها الآخرون. منذ بعض الوقت وُجد في الهند راهبة بوذية إنكليزية أجهدت نفسها في أن تطور القدرة على الرؤية عن طريق الأذنين بينما كانت لاتزال تملك رؤية عينية كاملة. مثل هذه الأفكار ليست إلا «انحرافاً عقلياً». الأمر دائماً هو الرغبة أو «العطش» إلى المقدرة والسلطة سواء في الميدان السياسي أو العسكري أو الاقتصادي أو الروحاني.

إن كلمة «التأمل» عدلت تعديلاً سيئاً المعنى الأصلي لكلمة «بهاقانا» التي تعني «الثقافة» أو «التطوير»، أي الثقافة العقلية والتطوير العقلي. فالبهاقانا البوذية في معناها الصحيح هي الثقافة العقلية بالمعنى الصحيح للكلمة. وهي تهدف إلى تخليص العقل من الرغاسات، مما يجعله مضطرباً كالرغبات الحسية والبغضاء والنية السيئة واللامبالاة والارتباك والاضطرابات والشكوك، وإلى تثقيف وتهذيب حالات التركيز والانتباه والذكاء والإرادة والنشاط وملكة التحليل والثقة والفرح والهدوء، ومؤدية في النهاية إلى الحكمة العليا التي ترى الأشياء كما هي، والتي تبلغ الحقيقة السامية العليا «النيرقانا».

هنالك نوعان من التأمل. الأول هو تطوير التركيز العقلي، والتركيز العقلي الأحادي الذي يؤدي، بطرق متنوعة موصوفة في النصوص البوذية، إلى أعلى حالات الصوفية مثل «جو العدم» أو «جو عدم الإدراك أو لا عدم الإدراك»، وكل هذه الحالات الصوفية هي، بحسب البوذية، خلأ أو نتاجات عقلية، ولا شيء منها يرى في الواقع، في الحقيقة، في النيرقانا. وهذا النوع من التأمل كان يوجد قبل النيرقانا، وهو ليس بوذاً خالصاً ولكنه ليس مستبعداً عن مجال التأمل البوذي، وهو ليس مع ذلك جوهرياً لتحقيق النيرقانا. وبوذا نفسه، قبل «استنارته» درس هذه التدريبات «اليوغية» تحت إدارة معلمين مختلفين وبلغ أعلى حالات الصوفية. إلا أن ذلك لم يكفه لأن تلك التدريبات لم تأت له بالتححرر الكامل، ولم تعطه رؤية

الواقع الأسمى، بل إنه اعتبر هذه الحالات الصوفية طريقة «لبقاءه سعيداً في هذه الحياة وحسب» وليس أكثر من ذلك.

عندئذ اكتشف الشكل الآخر «للتأمل» المعروف باسم «الرؤية» في طبيعة الأشياء التي تقود إلى تحرير العقل الكامل وإلى الوصول إلى الحقيقة الأسمى، إلى النيرقانا. وذلك هو جوهر التأمل، الثقافة العقلية البوذية، وهي طريقة تحليلية تعتمد على الانتباه والوعي والتيقظ والملاحظة.

وليس من الممكن أن نعالج معالجة مناسبة في بضع صفحات موضوعاً بهذه السعة وهذا العمق وهذه الأهمية. ومع ذلك فسنحاول أن نلخص باختصار ما هو «التأمل» البوذي الحقيقي باعتباره ثقافة عقلية بطريقة عملية يمكن أن يفيد منها القارئ.

إن الحديث الأكثر أهمية الذي أعطاه بوذا عن التنمية العقلية («التأمل») هو الذي كان عنوانه «بناء الانتباه». هذا الحديث عالي المقام في السنة البوذية. حتى أنه لا يروى بانتظام في الأديرة وحسب بل في المنازل البوذية أيضاً أمام العائلة المتحلقة التي تصغي إليه بإخلاص عميق. والبهيكهو يلقونه غالباً قرب سرير الميت لكي يظهر آخر أفكاره.

إن طرائق «التأمل» المذكورة في هذا الحديث ليست منقطعة عن الحياة، بل هي لاتتجنبها وكلها على علاقة بحياتنا ونشاطاتنا اليومية، مع أفراننا وأحزاننا، مع أحاديثنا وأفكارنا، مع اهتماماتنا المعنوية والفكرية.

والحديث مقسم إلى أربعة أقسام رئيسية: يعالج الأول منها جسدنا، والثاني أحاسيسنا، والثالث عقلنا، والرابع يتضمن مواضيع أخلاقية وفكرية متنوعة.

ويجب أن نفهم بوضوح، أنه مهما كان شكل «التأمل» فإن الجوهر في فيه هو الانتباه والوعي والملاحظة.

واحد من أمثلة «التأمل» الأكثر شهرة وشعبية وعملية والمتعلق بالجسد هو «الانتباه إلى التنفس». ومن أجل هذا التأمل وحده وُصفت في النص وضعية خاصة ومحددة للجسم. ومن أجل الأشكال الأخرى من «التأمل» المعروضة في «السوتا» (أي حديث بوذا الموما إليه) تستطيع أن تجلس، أو تبقى واقفاً أو تمشي أو تبقى ممتدداً حسيماً يناسبك. ولكن من أجل أن تدرب نفسك على الانتباه للتنفس (الشهيق والزفير) يجب عليك، كما يقول النص، أن «تجلس وساقاك متصلبتان (متربعاً) وجسدك منتصب وانتباهك في حالة إنذار». ولكن الجلوس مع تصالب الساقين ليس عملياً ولا سهلاً بالنسبة للناس كلهم ومن كل البلاد وبخاصة أناس الغرب، والنتيجة أنه بالنسبة للأشخاص الذين يصعب عليهم أن يجلسوا هذه الجلسة الجسدية، فإن باستطاعتهم الجلوس على كرسي «محتفظين بجسدهم منتصباً وبانتباههم في حالة إنذار». ومن الضروري قطعاً من أجل ممارسة هذا التدريب أن يجلس المتأمل منتصب القامة تماماً، ولكن بدون تصلب، ويداه موضوعتان براحة على ركبتيه. وبعد أن تجلس على هذه الطريقة يمكنك إما أن تغض عينيك، وإما أن توجه نظرتك إلى طرف أنفك بحسب ما يناسبك.

أنت تشهق وتزفر ليلاً نهاراً، ولكن دون أن تعي ذلك، ولا تركز عقلك ولو للحظة واحدة على هذه العملية. والآن ستعمل تماماً ما يلي: تتنفس كالمعتاد دون أي جهد أو إرغام. والآن تركز عقلك على الشهيق والزفير، تراقبهما، اجعل عقلك متيقظاً على شهيقك وزفيرك. يمكن أن يكون تنفسك طويلاً أحياناً وقصيراً أحياناً. هذا لا يهم. تنفس بشكل عادي وطبيعي. الشيء الوحيد المهم هو أنك عندما تتنفس طويلاً يجب أن تعي بأنك تتنفس طويلاً، وعندما تتنفس تنفساً قصيراً يجب أن تكون واعياً لذلك. وبعبارة أخرى يجب أن يكون عقلك مركزاً تماماً على تنفسك بحيث تعي تماماً حركاته وتغيرات إيقاعه. وانسى كل ما عدا ذلك، كل ما حولك، لاترفع عينيك، لاتنظر إلى شيء. حاول أن تفعل ذلك لخمس دقائق أو عشر.

في البداية ستجد صعوبة كبيرة في المحافظة على ذهنك مركزاً على تنفسك. ستفاجأ عندما ترى كيف يزوغ ولا يبقى ثابتاً وستأخذ بالتفكير في أشياء متنوعة، ستسمع أصوات الخارج، سيصبح فكرك مشتتاً وغائباً، ستفقد حماسك ويخيب ظنك. لكنك إذا تابعت ومارست هذا التمرين مرتين في اليوم، في الصباح والمساء، وخلال خمس دقائق أو عشر في كل مرة، فإنك ستصل بالتدريج إلى تحقيق هذا التركيز. وبعد مدة من الوقت ستأتي لحظة قصيرة يتركز فيها ذهنك على تنفسك ولا تعود تسمع ضجيج الجيران ولا يبقى العالم الخارجي موجوداً بالنسبة لك. هذه اللحظة القصيرة ستأتي لك بتجربة كبيرة جداً مشحونة بالفرح والسعادة والهدوء حتى لترغب في أن تطول. ولكنك لن تكون بعد قادراً على إطالتها. وإذا تابعت مع ذلك ممارسة هذا التمرين بشكل منتظم فإن التجربة ستحصل لك أيضاً وأيضاً وستطول شيئاً فشيئاً، وتلك هي اللحظة التي ستضيع فيها نفسك تماماً في الانتباه إلى تنفسك. فطالما بقيت واعياً لنفسك فإنك لن تستطيع أبداً التركيز على شيء.

هذه التجربة في الانتباه إلى التنفس، والتي هي الأسهل والأبسط للممارسة، هدفها أن تنمي القدرة على تركيز يقود إلى إنجازات صوفية عالية (ذيانا). والقدرة على التركيز هي جوهرية، من جهة أخرى، لبلوغ شكل ما من أشكال الفهم العميق، للاختراق، للنظر في طبيعة الأشياء بما فيها تحقيق «النيرفانا».

وبعيداً عن كل ذلك فإن هذا التمرين على مراقبة التنفس يأتي لك بنتائج مباشرة: حالتك الصحية الجسدية تتحسن، تأتي لك بالاسترخاء، بنوم عميق، وتجعل عملك اليومي أكثر جدوى. وسيجعلك ذلك أكثر هدوءاً وراحة حتى في اللحظات التي تشعر فيها بأنك في حالة عصبية أو أنك قليل الاضطراب، على أن تمارس هذا التمرين دقيقتين فحسب، فتحس مباشرة بالهدوء وأنك في راحة حسنة.

شكل آخر من «التأمل» من «التنمية العقلية» يقوم على أن توجه انتباهك إلى كل ما تفعل، أعمالاً وكلاماً، في حياتك الروتينية اليومية وفي عملك وفي حياتك الخاصة والعامة والمهنية، عندما تمشي وتجلس وتتمدد وتفكر، أو ما تنظر إليه من حولك أو ترتدي ثيابك، أو ما تتحدث به إلى شخص آخر أو عندما تبقى صامتاً، أو عندما تأكل أو تشرب، أو عندما تقضي حاجاتك الطبيعية - مهما فعلت يجب أن تكون على انتباه كامل وأن تكون واعياً لعملك في اللحظة نفسها التي قمت بها فيها. وهذا يعني أن عليك أن تعيش اللحظة الحالية، في العمل الحالي. وهذا لا يعني أن تتخلى عن التفكير في الماضي والمستقبل، بل يجب، على العكس، أن تفكر بهما ولكن في علاقتهما مع الحاضر، مع الفعل الحاضر في اللحظة الحاضرة، أين ومتى حدث ذلك في مثل هذه المناسبة.

إن الناس بوجه عام لا يعيشون في أفعالهم، في الحاضر، بل يعيشون في الماضي أو في المستقبل، ورغم ما يظهر من أن أنهم يفعلون شيئاً ما هنا، في اللحظة نفسها، فإنهم يكونون في مكان آخر، في أفكارهم، في مشاكلهم وفي اهتماماتهم الخيالية، ضائعين غالباً في ذكريات الماضي أو منجزين وراء رغبات وتأملات عن المستقبل. فهم لا يعيشون إذن فيما يفعلون في اللحظة ذاتها لأنهم لا يستمتعون بها، لأنهم تعساء مستأوون من الحاضر، من عملهم، فهم طبعاً عاجزون عن أن يقدموا كل اهتمامهم لما يبدو أنهم مشغولون بعمله.

أنتم تلاحظون أحياناً في أحد المطاعم رجلاً يقرأ وهو يأكل - وهو مشهد عادي جداً وشائع جداً. وهو يبدو مهتماً جداً وليس عنده وقت للطعام. وقد يمكن الظن بأنه يفعل الأمرين في وقت واحد، ولكنه في الواقع لا يفعل حقاً لا هذا ولا ذاك. فعقله متوتر مضطرب مشغول ولا يستمتع أبداً بما يبدو أنه يفعله ولا يعيش في اللحظة الحاضرة. بشكل غير واع وبجنون يحاول، على العكس من ذلك، أن

يتخلص من الحياة الواقعية (وهذا لا يعني مع ذلك أن على المرء ألا يتحدث مع صديق أثناء الغداء أو العشاء).

طالما أنتم أحياء فلن تستطيعوا التخلص من الحياة. مهما فعلتم، سواء أقمت في المدينة أو انسحبتم إلى مغارة فلا بد أن تنظروا مواجهةً إلى الحياة وأن تعيشوها. والحياة الحقيقية هي اللحظة الحاضرة - وليست ذكريات ماض مات وانقضى، ولا أحلام مستقبل لم يولد بعد. فمن يعيش في الحاضر هو في الحياة الواقعية وهو الأكثر سعادة.

عندما سئل لِمَ كان تلاميذه الذين يعيشون حياة بسيطة ويتناولون وقعة واحدة في اليوم بهذا البهاء والإشعاع أجاب بوذا: «إنهم لا يأسفون على الماضي ولا يهتمون بالمستقبل، بل هم يعيشون في الحاضر، ومن أجل ذلك هم متألقون. فالحققي باهتمامهم بالمستقبل وأسفهم على الماضي يجفون كما يجف تحت الشمس القصب المقطوع».

أن تنتبه أو تعي لا يعني أن عليك أن تفكر أو تكون واعياً «بأنني أفعل هذا أو أفعل ذاك»، كلا، فالأمر على عكس ذلك تماماً، فما أن تفكر بأنني «أفعل هذا» تصبح واعياً لذاتك، وعندئذ أنت لاتعيش في عملك بل في فكرة «أنا موجود»، والنتيجة أن عملك يفسد. يجب عليك أن تنسى نفسك تماماً وأن تضع فيما تفعل. فما أن يصبح أحد الخطباء واعياً لنفسه ويفكر «إنني أتوجه إلى مستمعين» يضطرب خطابه وينقطع حبل تفكيره، أما عندما يضع في خطابه، في موضوعه، عند ذلك يكون في الحالة الأفضل، يتكلم جيداً ويعبر بوضوح. إن كل عمل كبير - فني، أو شعري أو فكري أو لطيف للتسلية الذكية - إنما يتم إنجازه عندما يكون مبدعه مستغرقاً كلياً في عمله، حيث ينسى نفسه تماماً أو حينما يتخلص تماماً من وعيه بذاته.

إن هذا الانتباه، هذا الوعي المتيقظ لنشاطاتنا الذي علمه بوذا

يقوم على أن نحيا في الحاضر، في العمل نفسه (وهذا هو طريق «زن»^(*) الذي يقوم أساساً على هذا التعليم). فهنا، في هذا الشكل من التأمل ليس لديك شيء خاص تفعله لتنمية انتباهك، وليس عليك إلا أن تكون منتبهاً متيقظاً مهما كان العمل الذي تباشره. ليس عليك أن تضع ثمانية من وقتك الثمين لهذا «التأمل» الخاص، بل عليك تنمية انتباهك وأن تعي طول الوقت، في الليل والنهار، تجاه كل نشاطات حياتك اليومية.

إن الشكليين من «التأمل» اللذين تكلمنا عنهما يتعلقان بجسدنا. والآن توجد طريقة لممارسة التنمية العقلية («التأمل») ترتبط بانفعالاتنا وأحاسيسنا سواء كانت سارة أو مزعجة أو حيادية. ولناخذ مثلاً: أنتم تعانون من إحساس مؤلم. في هذه الحالة يُظلم عقلكم ويغرق في المبهمة، فهو غير رائق بل خائر مكتئب. وفي بعض الأحيان أنت لا ترى بوضوح لِمَ أنت تعاني من هذا الشعور المؤلم. قبل كل شيء عليك أن تتعلم ألا تكون تعيشاً في حالة أحاسيسك المزعجة، ألا تقلق بخصوص أحزانك، بل حاول أن ترى بوضوح لِمَ يوجد هذا الشعور بالحزن والقلق والألم. حاول أن تفحص كيف ظهر، ما هو سببه، كيف يتبدد وينقطع. حاول أن تفحصه كما لو أنك تراقبه من الخارج، بدون ردة فعل شخصية، مثل عالم يراقب شيئاً. وهنا أيضاً عليك ألا تنظر إليه نظرة شخصية باعتباره «إحساسي»، بل موضوعياً باعتباره «إحساساً». وينبغي عليك أيضاً أن تنسى تلك الفكرة الخاطئة عن «الأنا». وعندما تتبين طبيعته، كيف ظهر، كيف يختفي، عند ذلك يصبح فكرك غير متحيز تجاه هذا الشعور، يصبح منطلقاً وحرراً. وسيكون كذلك تجاه كل الانفعالات وكل المشاعر.

لنأت الآن إلى شكل «التأمل» المتعلق بعقلك. ينبغي عليك أن تكون على كامل الوعي في كل مرة يكون فيها فكرك منفعلاً أو منطلقاً، كل مرة يكون تحت تأثير البغضاء أو سوء النية أو الحسد،

(*) «زن» هو أحد مذاهب البوذية اليابانية المندرجة تحت لواء الماهايانا. المترجم.

أو أنه على العكس من ذلك مليء بالحب والعطف، كل مرة يكون فيها تحت تأثير الوهم أم أنه يملك معرفة واضحة وصحيحة، وهكذا... يجب علينا أن نعترف بأننا غالباً ما نكون خائفين أو خجلين من مراقبة فكرنا الخاص، ونفضل أن نتجنب ذلك. ينبغي علينا أن نكون على جراحة كافية وصدق كاف للنظر إلى فكرنا كما ننظر إلى وجهنا في مرآة.

والأمر لا يتعلق هنا بوضعية حرجة، أن نحاكم أو نتبين ما هو صحيح وما هو خطأ، أو ما هو خير وما هو شر، بل يتعلق ببساطة بأن نلاحظ ونفحص ونكون منتبهين. فهنا أنت لست قاضياً، بل عالماً يشاهد واقعاً. وعندما تلاحظ وتتبين بوضوح الطبيعة الحقيقية لفكرك، فإنك تصبح غير منحاز تجاه انفعالاته ومشاعره وأحواله. تصبح بذلك منطلقاً وحرراً، وتستطيع عند ذلك أن ترى الأمور كما هي.

إليك مثلاً: لنفرض أنك غاضب، يسيطر عليك الغضب والنية السيئة والبغضاء. ومن المثير للفضول واللامعقول ألا يكون رجل غاضب على هذا الشكل دون أن يكون واعياً حقاً لحالة عقله. ففي اللحظة التي يرى فيها غضبه فإن هذا الغضب يصبح فوراً فاتراً خجولاً ويبدأ بالهبوط. ينبغي عليك أن تفحص طبيعته، كيف ظهر وكيف يختفي. وهنا أيضاً يجب أن تتذكر أنه لا ينبغي التفكير في «أنا غاضب» أو في «غضبي»، بل عليك فقط أن تكون منتبهاً وواعياً لحالة العقل المستسلم للغضب. ستلاحظ بشكل موضوعي، ستفحص عقلاً في حالة غضب. تلك هي الحالة التي ينبغي اتخاذها تجاه كل مشاعر وانفعالات وحالات عقلية.

هناك أخيراً شكل من «التأمل» يقوم على المواضيع الأخلاقية والذهنية والفكرية. إن كل دراساتنا وقراءتنا ومناقشاتنا ومحدثاتنا وتفكيرنا في هذه المسائل مدرجة في هذا التأمل. هذا الكتاب والتفكير بعمق في الموضوعات المعروضة في هذا

شكل من أشكال التأمل. ولقد رأينا أن الحديث بين خيماكا وزمرة الكهنة كان نوعاً من التأمل الذي قادهم إلى بلوغ «النيرقانا».

بحسب هذا الشكل من التأمل تستطيع أن تدرس وتفكر في «الموانع الخمسة» (نيقارانا) التي هي:

- 1 - الرغبات الحسية.
- 2 - النية السيئة، الكراهية والغضب.
- 3 - الخمود والفتور.
- 4 - الهيجان والندم.
- 5 - الشكوك الارتياحية.

هذه العناصر الخمسة تعتبر مقاومة لكل تفهم واضح ولكل تقدم. وعندما يكون المرء قد انسحق لها دون أن يعرف كيف يتخلص منها فهو لا يستطيع أن يتقدم. هو صحيح أو خطأ، جيد أو سيء.

والآن نستطيع أن نتأمل أيضاً في العوامل السبعة لليقظة EVEL:

1 - الانتباه (SATI)، بمعنى أن يكون المرء واعياً ومتنبهاً في كل الأعمال، في كل الحركات الجسدية والعقلية كما سنأتي على ذكره.

2 - التقصي والبحث المتعاقب في مختلف المشاكل عن العقيدة. ويدخل في هذا الباب كل الدراسات الدينية والأخلاقية والفلسفية، وكل قراءاتنا وبحوثنا ومناقشاتنا، وسأديثنا، وحتى الحاضرون في مؤتمرات عقدت من أجل مثل هذه المسائل العقائدية.

3 - الهمة والنشاط في العمل بتصميم حتى بلوغ الغاية والهدف.

4 - الفرغ: وهو الصفة التي تتناقض مع حالة ذهنية متشائمة مظلمة أو قلقة.

5 - راحة الجسم والذهن: فينبغي على المرء ألا يتوتر لا جسدياً ولا عقلياً.

6 - التركيز، وقد ناقشناه فيما سبق.

7 - اعتدال المزاج (اللامبالاة)، وهذا يعني أن يكون المرء قادراً على أن يواجه، بهدوء وبدون اضطراب، كل صروف الحياة (أو مفاسدها).

وما هو جوهرى من أجل تقوية هذه الصفات هو الإرادة والميل الصادق. وتصف النصوص إضافة إلى ذلك كثيراً من الشروط المادية والروحية التي تساهم في تنمية وتطوير كل من هذه الصفات.

ويمكن للمرء كذلك أن «يتأمل» في مواضيع مثل «المجموعات الخمس AGREGATS وهو يفكر في مسألة «ماهو الكائن؟» أو «ماذا تُسمى الأنا؟» أو في «الحقائق الأربع النبيلة» كما ناقشناها فيما سبق. ودراسة هذه المواضيع، والبحوث المتعلقة بها تشكل هذا الشكل الرابع من التأمل الذي يقود إلى بلوغ الحقيقة السامية.

إلى جانب تلك التي ذكرناها يوجد كذلك الكثير من المواضيع الأخرى للتأمل من بينها يجب أن نذكر «الحالات الأربع السامية»: 1 - نشر ومد حب عام لحدود لها بنية حسنة على كل الكائنات الحية دون تمييز «كما تحب الأم ولدها الوحيد». 2 - العطف على كل الكائنات التي تتألم، تعاني من المصاعب وتقع تحت وطأة الأسى والبلوى. 3 - الفرغ المتعاطف مع نجاح الآخرين وسعادتهم وراحتهم. 4 - اللامبالاة تجاه كل صروف الحياة.

الأخلاق البوذية والمجتمع

بعض الناس يتخيلون أن البوذية نظام فيه من السمو والنبيل والجلال بحيث أن العاديين من الرجال والنساء لا يملكون إمكانية وضعه موضع التطبيق في هذا العالم من العمل والدأب اليومي الذي هو عالمنا. وهم يعتقدون أن من الضروري لمن يريد أن يكون بوذياً حقيقياً أن يتخلى عن العالم وينسحب إلى دير أو مكان منعزل هادئ.

وتلك في الحقيقة فكرة خاطئة تماماً نابعة من فهم ناقص لتعاليم بوذا. والناس متعجلون للوصول إلى نتائج سريعة وخاطئة، سواء بدافع مما سمعوه أو بعد قراءة غير مستوعبة لكتاب كتب عن البوذية من قبل مؤلف لم يفهم هو نفسه الموضوع في جوانبه كلها، ولم يقدم منه إلا وجهة نظر جزئية وسطحية. إن تعاليم بوذا لم تخصص للرهبان وحدهم الذين يعيشون في الأديرة، بل هي تتوجه أيضاً للرجال والنساء العاديين الذين يعيشون في منازلهم ومع عائلاتهم. والصراط الثماني النبيل الذي هو قاعدة الحياة البوذية إنما يتوجه للجميع بدون تمييز.

لا يستطيع الناس كلهم أن يصبحوا رهباناً ولا أن ينسحبوا إلى مغارة أو غابة. ومهما كانت البوذية نقية ونبيلة وسامية فإنها ستكون بدون أهمية ولا مغزى بالنسبة للجماهير البشرية إذا لم

تتمكن تلك الجماهير من اتباعها في حياتها اليومية في قلب العالم الحديث. ولو أنهم فهموا فهماً صحيحاً روح البوذية (لا حرفيتها) فسيكون بإمكانهم اتباعها قطعاً ووضعها موضع التطبيق وهم يمارسون حياتهم كأناس عاديين.

بعض الأشخاص يسهل عليهم اتباع طريق البوذية إذا عاشوا في مكان هادئ، وانسحبوا في معزل عن المجتمع. ولكن ثمة آخرون يستطيعون أن يجدوا أن هذا النوع من الانسحاب يثقل ويحبط جسدياً ومعنوياً وجودهم كله، وأن هذا النوع من الحياة لا يلائم تطوير حياتهم الروحية والفكرية.

إن التخلي الحقيقي لا يعني أن على المرء الابتعاد جسدياً عن العالم. وقد قال ساريبوتا تلميذ بوذا الرئيسي: إن المرء يستطيع العيش في الغابة مستسلماً لممارسات تقشفية ويبقى مع ذلك مليئاً بالأفكار الفاسدة والقطارات. وإن شخصاً آخر يستطيع أن يعيش في قرية أو مدينة ولا يسلم نفسه لأية ممارسات تقشفية ويستطيع عقله مع ذلك أن يبقى نقياً متحرراً من كل ما هو فاسد وقذر. فمن يمارس من هذين الاثنين - كما قال ساريبوتا - حياة نقية في قرية أو مدينة هو أعلى وأسمى بكثير وأكبر من ذلك الذي يعيش في الغابة مع أفكاره الفاسدة.

الاعتقاد السائد الذي يجب بموجبه أن يهرب المرء من الحياة لكي يتبع تعاليم بوذا هو اعتقاد خاطئ. وهي طريقة غير واعية للاعتذار عن وضع تعاليم بوذا موضع التطبيق. ويجد المرء في الأدب البوذي إشارات عديدة عن رجال ونساء عاشوا حياة عادية طبيعية مع عائلاتهم ونجحوا في ممارسة ما علمه بوذا وبلغوا النيرقانا. والواقع أن فاكشاغوتا الضال (الذي روينا قصته في فصل أناتاً) سأل بوذا مباشرة عما إذا كان يوجد رجال ونساء علمانيون(*) عاشوا حياتهم العائلية ونجحوا في اتباع تعليمه وبلغوا

(*) يقصد بالعلمانيين هنا العاديين من الناس أي الذين ليسوا رهباناً. المترجم.

حالات روحانية عالية. وقد أعلن بوذا بطريقة منهجية بأنه لا يوجد واحد أو اثنان، وليس مئة وليس مئتان أو خمسمئة بل أكثر من ذلك بكثير كانوا علمانيين، رجالاً ونساء، ومارسوا حياة علمانية، واتبعوا تعاليمه بنجاح وبلغوا حالات روحانية عالية.

ربما كان مناسباً لبعض الناس أنهم يسعدون بممارسة حياة انسحاب إلى مكان هادئ بعيد عن الضجيج والإثارة، ولكن من المؤكد أن الأفضل، وهو يتطلب شجاعة أكثر، أن يمارس المرء البوذية وهو يعيش وسط أمثاله يساعدهم ويقدم خدماته لهم. وربما كان من المفيد في بعض الحالات أن ينسحب المرء فترة من الزمان إلى عزلة يستكمل خلالها تفكيره وسجاياه كتدريب أخلاقي وروحاني تمهيدي لكي يغدو أقوى، على أن يخرج منها بعد ذلك ويقدم خدماته للآخرين. ولكن إذا قضى امرؤ في عزلته حياته كلها مهتماً بسعادته الشخصية وحسب، و«بسلامته» دون أن يهتم بأمثاله، فإن ذلك لا ينطبق قطعاً مع روح التعليم البوذي الذي يعتمد على أساس من المحبة والعطف وخدمة الآخرين.

يمكن الآن طرح هذا السؤال: هل يمكن ممارسة البوذية مع ممارسة حياة علماني عادي، ولماذا «السانغا»، أي نظام الرهبنة، وهل أنشأه بوذا؟ إن نظام الرهبنة يقدم الفرصة لأولئك الذين قرروا أن يهبوا حياتهم، ليس لتطورهم الذاتي الروحاني والفكري، بل كذلك ليقدموا الخدمة للآخرين. إننا لا يمكن أن ننتظر من علماني عادي يعيش مع عائلته أن يكرس كل وقته لخدمة الآخرين، بينما يمكن لراهب ليس لديه مسؤوليات عائلية ولا ارتباطات دنيوية أن يكرس حياته كلها «لراحة الكثيرين وسعادة الكثيرين»، وذلك بحسب نصيحة بوذا. وهكذا خلال التاريخ أصبحت الأديرة البوذية لامراكز روحانية وحسب، بل كذلك مراكز للدراسة والثقافة.

إن الرهبان البوذيين يمارسون حياة مشتركة في المدن والقرى. وفي كل البلاد البوذية يحافظون على العزوبية، باستثناء

بعض الشيع في اليابان وفي التبت التي تسمح لأعضائها بالزواج - وهي عادة دخلت طبعاً في وقت متأخر - والرهبان البوذيون ليسوا مخولين بحيازة ممتلكات شخصية عدا القليل الضروري، ولكن لهم الحق باستخدام الممتلكات العامة المقدمة من العلمانيين كهدايا لنظام الرهبنة (السانغا). وهكذا يوجد الكثير من الأديرة، وخاصة القديمة الشهيرة منها، مزدوجة بأراضي لإعالتهم. إن الرهبان البوذيين والأديرة مدعومون من الجمهور. فهو الذي يزودهم بما هو ضروري. في الماضي كان الرهبان يعيشون في العادة على الاستجداء من بيت إلى بيت للحصول على غذائهم. ومع التطورات الاقتصادية الحديثة اختفت هذه العادة بالتدريج، رغم أنه ما يزال الألوف منهم يحافظون على هذه العادة القديمة وخاصة في بلاد «الثيراقادا»^(*) (كسيلان (سيريلانكا) وبرمانيا وتايلاند وكمبوديا... الخ. وواجبات الرهبان الذين يعيشون في المدن والتأمل من أجل تطورهم الذاتي الروحاني والفكري. وثانياً، عليهم أن يعلموا الأطفال الذين يأتون للدراسة في الدير، وأن يقدموا مواعظ منتظمة في الاجتماع الذي يعقد في بعض الأيام، ويهتمون بالاحتياجات الدينية للمدنيين، ويتعهدون الدير، ويقدمون النصائح والتعاليم الدينية للأشخاص والمجموعات، وينظمون الطقوس والاحتفالات الدينية كما ينظمون الاجتماعات التي تعقد من أجل المنفعة الاجتماعية... الخ. وثمة أيضاً رهبان يعيشون في الغابات منقطعين عن بقية المجتمع مكرسين حياتهم كلها للتأمل في عزلتهم. وتظهر «السيغالا - سوتّا» بأي احترام كان بوذا يعامل حياة المدنيين وعائلاتهم وارتباطاتهم الاجتماعية.

كان ثمة فتى اسمه «سيغالا» اعتاد أن يعبد الاتجاهات الستة: الشرق والجنوب والغرب والشمال والسمت وسمت القدم (وهو نادر).

(*) الثيراقادا: هي البوذية الأصلية المحافظة التي لم تتطور، وتسمى أيضاً البوذية الصغيرة، أما الماهايانا فهي البوذية المتطورة المنتشرة في الصين واليابان وتسمى كذلك بالعربة الكبيرة. المترجم.

السمت، أو الاتجاه المعاكس للسمت). مطيعاً بذلك آخر رغبة لأبيه المتوفى. فقال بوذا لهذا الشاب إن تعليمه يقول إن الاتجاهات الستة لها اعتبار مختلف: فالشرق هو الأبوان، والجنوب هم المعلمون، والغرب هو الزوجة والأولاد، والشمال هو الأصدقاء والأقارب والجيران، وسمت القدم هو الخدم والعمال والمستخدمون، والسمت هو رجال الدين.

«ينبغي على المرء أن يعبد هذه الاتجاهات الستة. وكلمة (يعبد) المستعملة هنا هي مليئة بالمعاني، لأن المرء يعبد شيئاً مقدساً يستحق التبجيل والاحترام. وهذه المجموعات العائلية والاجتماعية الست التي ذكرناها تعتبر في البوذية مقدسة وأهلاً للاحترام والعبادة. ولكن كيف تُعبد؟ لقد أعلن بوذا أن المرء لا يستطيع «عبادتها» إلا بإتمام واجباته تجاهها. وهذه معددة في خطابه مع سيغالا.

1 - الأبوان مقدسان عند أولادهم. وقد قال بوذا في مكان آخر إن الآباء يُسمَّون براهما. وكلمة براهما تدل في الفكر الهندي على المفهوم الأعلى والأقدس، وقد أضفاه بوذا على الأبوين. وهكذا فإن الأولاد في العائلات البوذية المحترمة (يعبدون) حرفياً أبويهم صباحاً ومساءً، ويثابرون على إتمام بعض الواجبات تجاههما: العناية بهما في شيخوختهما، تقديم ما هو ضروري لهما، المحافظة على شرف العائلة حسبما تقتضيه التقاليد، المحافظة على الإرث الذي تركه الوالدان، إتمام الطقوس الجنائزية بعد موتهما. وعلى الأبوين من جهتهما إنجاز بعض المسؤوليات تجاه أولادهما: ينبغي حمايتهم من السلوك في طرق الفساد، توجيههم إلى النشاطات الخيرة والمفيدة، تأمين تربية حسنة لهم، تزويجهم من عائلات محترمة، وأن ينقلا إليهم الإرث في الوقت الملائم.

2 - العلاقات بين المعلم والتلاميذ. فالتلميذ يجب أن يحترم معلمه ويطيعه، أن يتكفل بنفقات معاشه بحسب إمكاناته، أن يدرس بعناية. وعلى المعلم بدوره أن يدرب تلميذه وينشئه كما ينبغي، أن

يعلمه تعليماً جيداً، أن يقدمه لأصدقائه، وأخيراً أن يجتهد بأن يؤمن له بعد إتمام الدراسة عملاً يطمئن إليه.

3 - العلاقة بين الزوج والزوجة. إن المحبة التي يجب أن تجمعهما تعتبر شبه دينية أو مقدسة. وهي تسمى «الحياة العائلية المقدسة». ويجب أن نلاحظ هنا أيضاً أن كلمة مقدسة استعمل لها في الهندية كلمة «براهما» التي تدل على أعلى درجات الاحترام، وهي ما تقوم عليه العلاقة التي تربط بين الزوجين. وعلى الزوج والزوجة أن يكونا مخلصين يحترم كل منهما الآخر، وثمة بعض الواجبات التي تربط بينهما: على المرء أن يبجل زوجته على الدوام، ولا ينبغي أن يفقد احترامه لها. يجب أن يحبها ويخلص لها ويؤمن لها راحتها ومنزلها، وعليه أن يبهجها بتقديم الحلوى والمجوهرات. (إن واقع أن بوذا لم يهمل حتى الإشارة إلى الهدايا التي ينبغي على الزوج أن يقدمها لزوجته تظهر كم كان بوذا متفهماً ومتعاطفاً مع المشاعر الإنسانية العادية). وعلى الزوجة من جانبها أن تعنى بالأعمال المنزلية، وأن تستقبل الضيوف والزوار والأصدقاء والأقارب والمستخدمين. وعليها أن تحب زوجها وأن تخلص له وتحافظ على ممتلكاته، وأن تكون ماهرة وشجاعة في كل النشاطات.

4 - العلاقات بين الأصدقاء والأقارب والجيران. ينبغي عليهم أن يكونوا مضيافين ومحسنين لبعضهم البعض، وأن يعبروا عما يجول بخاطرهم بحب وعناية، وأن يعملوا دائماً لمصلحتهم وراحتهم، وأن يتعاملوا بطريقة التساوي ولا يتخاصموا، وأن يتساعدوا عند الحاجة ولا يترك بعضهم بعضاً عند المصاعب والضيق.

5 - العلاقة بين المعلم والخدم. إن على المعلم أو المستخدم العديد من الواجبات تجاه خادمه أو مستخدمه. فعليه أن يؤمن له عملاً يناسب مهارته وقدراته، وعليه أن يدفع له الأجر المناسب، وأن يؤمن له العناية الطبية، وأن يمنحه، في المناسبات، هدايا ومكافآت.

وفي المقابل، على الخادم أو المستخدم أن يكون متيقظاً وشجاعاً وأميناً ومطيعاً، لا يخدع ولا يسرق معلمه، وأن يكون معتنياً بعمله.

6 - العلاقات بين رجال الدين (حرفياً هم المعتزلون المتفردون والبراهمانا) والمدنيين. على هؤلاء الأخيرين أن يسهروا بكل طيبة واحترام على الحاجات المادية لرجال الدين. وعلى رجل الدين أن يمنح، بكل عطف، المدنيين المعرفة والعلم وأن يقودهم في طريق الخير ويبعدهم عن طريق الشر.

وهكذا نرى أن حياة المدني في عائلته وفي علاقاته الاجتماعية متضمنة في «التأديب النبيل» وتقع في إطار الحياة البوذية كما رسمها بوذا.

وهكذا نقرأ أيضاً في «الساميوثا - نيكايا»، وهو واحد من أقدم النصوص البالية، أن ساكّا ملك الآلهة أعلن أنه يحترم ليس الرهبان وحدهم الذين يمارسون حياة قدسية، بل وكذلك «التلاميذ المدنيين» الذين ينجزون أعمالاً تستأهل التقدير، الفاضلين، الذين يبذلون عنايتهم لعائلتهم بكل استقامة.

فإذا رغب امرؤ في أن يكون بوذياً فليس من طقس يجب إتمامه، ولا تعميم يتلقاه (ولكن إذا أراد أن يصبح بهيكهو، أي عضواً في نظام الرهبنة السانغا فعليه أن يخضع لتدريب تأديبي طويل ولتربية دينية). وإذا فهم المرء تعاليم بوذا، وإذا ملك الاقتناع بأن هذا التعاليم هي الطريق الصحيح، وإذا التزم باتباعها، فهو في هذه الحالة بوذي.

ولكن، بحسب تقليد قديم لم ينقطع في البلاد البوذية، فإن المرء يعتبر بوذياً عندما يتخذ البوذا، والذامّا (تعليمه) والسانغا (نظام الرهبنة) - وهم ما يطلق عليهم بصورة عامة اسم «الجوهرة الثلاثية» - ملاجئ له. وعندئذ يرتبط بمراعاة الحد الأدنى من الواجبات الأخلاقية لبوذي مدني، وهي القواعد الخمس، أي 1 - ألا يدمر الحياة. 2 - ألا يسرق. 3 - ألا يزنّي. 4 - ألا يكذب. 5 - أن يمتنع عن

المشروبات المسكرة. والبوذي يركع ويداه مضمومتان عابداً أمام تمثال بوذا، ويكرر هذه الصيغ (الخمس) - وباللغة البالية عموماً - بعد راهب بوذي. وفي الاحتفالات الدينية يكرر الحاضرون عادة هذه الصيغ بعد أحد الرهبان.

وليس على البوذي أن يقوم بأي طقوس خارجية. فالبوذية هي طريقة للحياة، وما هو جوهرى هو اتباع (الصراط الثماني النبيل). ولكن يوجد طبعاً في كل البلاد البوذية احتفالات بسيطة وجميلة. وفي الدير يوجد عموماً نصب على شكل القبة يحتفظون في داخله بذخائر جسدية لبوذا، شجرة تذكر بالشجرة التي بلغ تحتها بوذا «الاستنارة»، وبناء يحتوي تمثال بوذا. هذه الأشياء الثلاثة هي مبدلة في النظام الذي ذكرناه سابقاً. والبوذيون يأتون بوجه عام إلى المعبد في أيام القمر البدر، وعند الهلال الجديد، وفي الربع من الشهر القمري. وهناك يقرؤون (الملاجئ الثلاثة) أي (البوذا والذامّا والسانغا)، والقواعد الخمس وهم راكعون أمام واحد من أشياء العبادة الثلاثة. ثم يشعلون القناديل ويقدمون الزهور ويحرقون البخور أمام هذه الأشياء وهم يقرؤون الصيغ والعبارات التي تمدح فضائل ومزايا البوذا والذامّا والسانغا. ولا ينبغي تشبيه هذه الممارسات بصلوات الأديان الإلهية، إذ هي بكل بساطة توجيه الاحترام إلى ذكرى المعلم الذي دل على الطريق. وبعد ذلك يستمعون إلى الموعظة.

في أيام القمر البدر وهلال مطلع الشهر يراعي الآلاف من البوذيين القواعد الثمان: 1 - لا تدمر الحياة. 2 - لا تسرق. 3 - لا تزنّي. 4 - لا تكذب. 5 - لا تشرب المشروبات المسكرة. 6 - لا تتناول أطعمة قوية بعد الظهر. 7 - لا تستعمل كراسي وأسرّة فاخرة ومريحة. 8 - لا تغنّ ولا ترقص ولا تتسلّ ولا تستعمل الزينة ولا العطور. ثم يقضون كل النهار والليل في المعبد متأملين ومستمعين إلى المواعظ، قارئين النصوص الدينية ومتحدثين فيما بينهم في المسائل الدينية.

أكبر كل الأعياد البوذية هو يوم البدر من شهر أيار المعروف باسم فيساك للاحتفال بميلاد بوذا واستنارته ووفاته. وفي هذا اليوم تزين البيوت والمعابد والشوارع بالأعلام البوذية السداسية الألوان، وبالزهور والقناديل. آلاف وآلاف من الرجال والنساء والأولاد يأتون إلى الأماكن الدينية. مئات من المطاعم المجانية تنظم على يد الجمعيات والجماعات من أجل خدمة الحجاج. روح من المحبة وحسن النية والانسجام والسلام والفرح تنتشر بين الشعب وفي كل مكان.

في البوذية لا وجود للتعميد. ولكن عندما يولد أحد الأطفال يقوده والداه إلى المعبد في خروجه الأول، ويضعانه تحت قدمي تمثال بوذا، فيباركه الرهبان وهم يقرؤون النصوص المقدسة. وحتى قبل ولادة الطفل يدعى الرهبان لمباركة الأم المستقبلية.

والرهبان البوذيون لا يخدمون في الزيجات، لأن الزواج عند البوذيين هو احتفال مدني، يرتبط بقضية اجتماعية. ولكنهم يعطون للاحتفال صفة دينية بإدخالهم فيه عناصر بوذية كقراءة آيات مقدسة للمباركة على يد زمرة من الفتيات أو الصبية. أما الرهبان أنفسهم فهم لا يحضرون أبداً في حفلات الزواج وخاصة في بلاد التيراكادا، ولكنهم يدعونهم على الغذاء في المنزل بعد يوم أو يومين من الزواج. وفي هذه المناسبة يقدم أحد الرهبان موعظة داعياً الزوجين إلى ممارسة حياة زوجية سعيدة ومنسجمة حسب تعاليم بوذا. وعلى عكس ذلك يخدم الرهبان البوذيون في المآتم يقدمون فيها مواظ للتعزية.

وعندما يمرض أحد البوذيين يدعون غالباً الرهبان لقراءة خطاب «الحماية». وهذا الاحتفال الذي يقرأ فيه واحد أو اثنان من الرهبان، بصوت منغم حزين، بعضاً من خطاب الحماية باللغة البالية تقدم فيها البركة للحاضرين، هو احتفال شعبي جداً عند البوذيين. وتكاد كل المعابد يقام فيها هذا الاحتفال في المناسبات كعيد عام

لمصلحة الجميع. ومثل هذا الاحتفال يمكن أن يدوم ليلاً نهاراً بدون انقطاع خلال يوم أو يومين، بل وخلال أسبوع أو أكثر.

وهناك احتفالات أخرى أو مناسبات تقليدية، رغم أنها ليست جوهريّة، فهي تظهر قيمتها بأنها ترضي بعض الانفعالات والحاجات الدينية لأولئك الذين هم أقل تقدماً من الناحيتين الفكرية والروحية فتساعدهم بالتدريج طوال الطريق (الصراط).

إن أولئك الذين يتخيلون أن البوذية لا تهتم إلا بالأفكار العالية جداً، إلا بالأفكار الأخلاقية والفلسفية، متجاهلة المصلحة الاجتماعية والاقتصادية للجماهير، هم في ضلال مبين. فبوذا كان يهتم بسعادة الإنسانية. وبحسب ما يراه ليس من سعادة ممكنة خارج حياة نقية قائمة على مبادئ أخلاقية وروحانية. ولكنه كان يعرف أيضاً أن من الصعب ممارسة مثل هذه الحياة إذا كانت الشروط المادية والاجتماعية غير مواتية.

والبوذية لا تعتبر الراحة المادية هدفاً في ذاتها. إنها فقط وسيلة في سبيل هدف - هدف أعلى وأنبل. ولكنها وسيلة لا بد منها لبلوغ هدف أعلى من أجل سعادة الإنسان. فالبوذية تعترف إذن بأن حداً أدنى من الشروط المادية هو مناسب للنجاح الروحاني، حتى عندما يتعلق الأمر براهب منشغل في تأمله في مكان منعزل.

إن بوذا لا يفصل الحياة عن مضمونها وخلفيتها الاجتماعية والاقتصادية، فهو يعتبرها كلاً واحداً في كل جوانبها الروحية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وتعاليم بوذا في المواضيع الأخلاقية والروحانية والفلسفية معروفة جداً. ولكنهم يعرفون القليل من الأمور، وخاصة في الغرب، عن تعاليمه التي تمس المسائل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. ومع ذلك هناك الكثير من الأحاديث التي تعالج هذه المواضيع نجدها على طول النصوص القديمة. وإليك فقط بعض الأمثلة:

يؤكد أحد الأحاديث (وقد ذكر المؤلف اسمه الطويل جداً، ١١١١)

الهندية) بوضوح أن الفقر هو سبب الفسق والجرائم مثل السرقة والغش والاعتصاب والبغضاء والقسوة... الخ والملوك في الأزمنة القديمة، كما هو الحال مع حكومات اليوم، كانوا يجتهدون لإلغاء الجريمة عن طريق العقاب. ويقول نص آخر كم كان هذا عبثاً لاطائل تحته وينكر جدوى هذه الطريقة. وقد حث بوذا، على عكس ذلك، على وضع حد للجريمة بتحسين الأحوال الاقتصادية للشعب. ويقول بأن البذار والعناصر الأخرى اللازمة للزراعة يجب أن تؤمن للمزارعين والمستثمرين. وأن رؤوس أموال يجب أن توضع تحت تصرف الباعة وأهل الحرف الأخرى. وأن الأجور يجب أن تدفع فوراً للمستخدمين. وعندما تؤمن للشعب وسائل كسب مردود كاف فإنه سيرضى ويكتفي ويصبح في معزل عن الخوف والقلق، وعندئذ تصبح البلاد هادئة وتتخلص من الجريمة.

من أجل هذا ذكر بوذا المدنيين كم هو ضروري تحسين الشروط الاقتصادية. ولا يعني هذا طبعاً أنه وافق على أن يكسوا الثروات بشراسة وتعلق، فهذا الأمر يتعارض مع تعاليمه الأساسية. ولم يوافق كذلك على أن يستخدم المرء كل وسيلة لكسب عيشه. فثمة مهن أدانها كما رأينا سابقاً، مثل صناعة الأسلحة والمتاجرة بها كوسائل ضارة في الحياة.

رجل اسمه ديغاجانو زار بوذا يوماً وقال له: «يا سيدي، نحن مدنيون عاديون نمارس حياة عائلية مع زوجة وأولاد، فهل يمكن للكلبي السعادة أن يقدم لنا تعليماً يقودنا إلى السعادة في هذا العالم وفي ماوراءه؟».

فأجاب بوذا بأنه يوجد أربعة أشياء تقود الإنسان إلى السعادة في هذا العالم: أولها أن يكون ماهراً وفعالاً وصاحب ذمة ونشاط في مهنته مهما كان شأنها. وعليه أن يملك المعرفة الكاملة بها. وثانيها أن عليه صيانة كسبه الذي حصل عليه بعرق جبينه حصراً (وهذا يعني أن يصون كسبه من اللصوص وغيرهم. وهذه الأفكار

كلها يجب أن يُنظر إليها نظرة الاعتبار في أحوال العصر). وثالثها أن يصاحب الأخيار المخلصين المتعلمين الفاضلين الليبراليين والأذكياء الذين يساعدونه على التمسك بالطريق السوي وأن يحمي نفسه من الشر. ورابعها أن عليه الإنفاق بتعقل حسب دخله، لا أن يسرف ولا أن يبخل. وهذا يعني أن عليه ألا يجمع المال لبخله ولا أن يستسلم للتبذير - وبعبارة أخرى عليه أن يعيش حسب إمكانياته.

وبعد ذلك عرض بوذا الفضائل الأربع التي تقود مدنياً إلى السعادة في العالم الآخر: أولاً عليه أن يتحلى بالإيمان والثقة بالقيم الأخلاقية والروحية والفكرية. ثانياً أن يتمسك بالأمر الجيد أو يؤذيها بالسرقة والغش والزنا والكذب والمشروبات المسكرة. ثالثاً يجب أن يمارس الإحسان والكرم بدون مبالغة. رابعاً عليه أن ينمي الحكمة التي تؤدي إلى تدمير الألم التام وتوصل إلى النيرقانا.

وكان بوذا أحياناً يدخل في تفاصيل تتعلق بالإمساك والتبذير في المال، مثل قوله إلى الفتى سيغالا إن عليه أن ينفق ربع دخله لنفقاته اليومية، وأن يستخدم نصفه في عمله ويضع الربع الأخير جانباً إلى وقت الحاجة.

وفي أحد الأيام قال بوذا لمصرفي كبير كان أحد تلاميذه المدنيين الأكثر إخلاصاً، والذي شاد له دير جيتافانا الشهير في ساقاتي، إن على المدني أن يمارس الحياة العائلية العادية على أربعة أشكال من السعادة. الشكل الأول من السعادة هو التمتع بالأمان الاقتصادي أو بثروة كافية حصل عليها بوسائل سليمة وشريفة. والثاني أن ينفق ثروته بسخاء على نفسه وعائلته وأصدقائه وأقاربه وفي أعمال الإحسان. والثالث أن يكون خالياً من الديون. والرابع من أشكال السعادة هو أن يمارس حياة مستقيمة طاهرة دون أن يفعل شراً في الفكر والقول والعمل. ويحسن أن نلاحظ الأنواع الثلاثة الأولى من السعادة ذات طبيعة اقتصادية، ولكن بوذا ذكر أخيراً هذا المصرفي بأن السعادة المادية

والاقتصادية «لاتساوي السدس من أجزاء» السعادة الروحانية الناجمة عن حياة طاهرة صالحة.

نرى من هذه الأمثلة أن بوذا يعتبر الرفاهية الاقتصادية شرطاً للسعادة الإنسانية، ولكنه لايعترف بأن النجاح واقعي وحقيقي إذا اقتصر على أن يكون مادياً محروماً من أساس روحاني وأخلاقي. وفي الوقت الذي يشجع فيه النجاح المادي فإن بوذا يصبر بقوة على تنمية الصفة الأخلاقية والروحانية من أجل قيام مجتمع سعيد هادئ وراض.

وبوذا لم ينصح بعدم اللجوء إلى العنف وإلى السلم وحسب، بل ذهب إلى ساحة القتال نفسها وتدخل شخصياً لمنع الحرب أثناء النزاع بين الساكيا والكوليا الذين كانوا يستعدون للقتال لتسوية مسألة مياه روهيني. وقد منعت أحاديثه ملك أجاتا ساتو من مهاجمة مملكة الفاجي.

في الزمن الذي عاش فيه بوذا، كما هو حال اليوم، كان يوجد ملوك يحكمون دولهم حكماً ظالماً. فهم يزيدون الضرائب بشكل متمازٍ وينزلون أنواعاً قاسية من العقاب. وكان الشعب مضطهداً ومستغلاً ومعذباً ومظلوماً. وقد تأثر بوذا تأثراً عميقاً من هذه المعاملات غير الإنسانية. وروى أنه اهتم بمسألة حكومة صالحة، وأن على أفكاره أن تقدر في المجال الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لزمانه. وقد أبان كيف أن بلاداً يمكنها أن تصبح فاسدة منحلة وتعيسة عندما يصبح رؤساؤها من ملوك ووزراء وموظفين أنفسهم فاسدين وظالمين. ولكي يصبح البلد سعيداً يجب أن تكون له حكومة عادلة. ومبادئ هذه الحكومة العادلة معروضة من قبل بوذا في تعاليمه عن «واجبات الملك العشرة» كما هي مذكورة في الجاكاتا.

طبعاً إن كلمة ملك أو راجا في الزمن الماضي يجب أن يحل

محلها اليوم كلمة «حكومة». والنتيجة أن «واجبات الملك العشرة» تنطبق الآن على كل أولئك الذين يشاركون في الحكومة من رؤساء دول ووزراء وزعماء سياسيين وأعضاء الجهاز التشريعي وموظفي الإدارة.

أول هذه الواجبات العشرة هي السخاء والكرم والإحسان. فالملك لاينبغي أن يكون شرهاً في الحصول على الثروة والأموال، بل يجب أن ينفقها لرفاهية الشعب.

وثانيها الصفة الأخلاقية العالية. فلا يجب عليه أبداً تدمير الحياة والغش والسرقة ولا استغلال الآخرين أو ارتكاب الزنا أو أن يقول أشياء خاطئة أو أن يتناول المسكرات، أي أن عليه على الأقل أن يراعي التعاليم الأخلاقية الخمسة لعامة الشعب.

ثالثها أن يضحى بكل شيء لمصلحة الشعب. فعليه أن يكون مستعداً للتضحية براحته واسمه وسمعته وحتى بحياته لمصلحة الشعب.

رابعها الشرف والاستقامة. فعليه أن يكون متحرراً من الخوف والمحاباة في ممارسة واجباته، وأن يكون صادقاً في نواياه، وألا يخدع الناس.

خامسها اللطف والدمائة، فعليه أن يكون ذا مزاج لطيف.

سادسها التقشف في عاداته، فعليه أن يمارس حياة بسيطة ولايميل إلى الترف وأن يتمالك نفسه.

سابعها غياب الكراهية والنية السيئة والعداء، فلا ينبغي أن يضرر حقداً على أحد.

ثامنها اللاعنف. وهذا يعني أن عليه ليس فقط ألا يؤذي أحداً بل وأن يحمل نفسه على إشاعة السلام متجنباً وممانعاً العنف. شيء يؤدي إلى العنف وتدمير الحياة.

تأسعها الصبر والتسامح والاحتمال والتفهم. فعليه أن يكون قادراً على تحمل التجارب والصعوبات والإهانات بدون غضب.

عاشرها عدم الاعتراض وعدم إقامة العراقيل. وهذا يعني أن عليه ألا يعارض إرادة الشعب وألا يقاوم أي تدبير يناسب رفاهية الشعب. وبعبارة أخرى أن يتمسك بالإنسجام مع الشعب.

ولا فائدة في القول كيف تكون سعيدة بلاد يحكمها رجال يتحلون بهذه الصفات. وليس يعني ذلك يوتوبيا لأنه حدث في الماضي أن ملوكاً من أمثال أسوكا في الهند أقاموا ممالكهم على أساس من هذه الأفكار.

قال بوذا: «أبدأ بالبغضاء لاتهدأ البغضاء، بل هي تهدأ بالنية الحسنة، وتلك حقيقة أبدية». «ينبغي الانتصار على الغضب بالنية الحسنة، وعلى الخبث بطيبة القلب، وعلى الأنانية بالإحسان، وعلى الكذب بالصدق».

لن يكون ثمة سلام ولاسعادة لإنسان طالما هو يشتهي ويتعطش لغزو جاره وقمعه وإخضاعه. وكما قال بوذا أيضاً: «المنتصر يولد الكراهية، ويقع المغلوب في الشقاء، وذلك الذي يتخلى عن النصر وعن الهزيمة سعيد وآمن». إن النصر الذي يأتي بالسلام والسعادة هو الانتصار على النفس. «يمكن الانتصار على الملايين في ساحة القتال، ولكن ذلك الذي ينتصر على نفسه هو أكبر المنتصرين».

تلك نتيجة وأمل في أن نفكر اليوم بوجود حاكم كبير على غرار ملك شهير في التاريخ، ملك الشجاعة والثقة والخيال على أن يضع موضع التطبيق تعليم اللاعنف هذا، تعليم السلام والمحبة في إدارته لإمبراطورية واسعة سواء في الميدان الداخلي والخارجي، وهو أسوكا الإمبراطور البوذي الكبير للهند في القرن الثالث ق.م. «المحبوب من الآلهة» كما كان يُسمى.

في البداية اتبع مثال أبيه بيندوسارا وجده شاندراغوبتا، وأراد

أن يتابع فتح شبه الجزيرة الهندية، فغزا وفتح كالينغا وضمها إلى إمبراطوريته. وفي خلال هذه الحرب قُتل وجُرح وغُذِب في الأسر مئات الآلاف من الناس. لكنه عندما غدا بعد ذلك بوذياً تغير تماماً وتبدل بتأثير تعاليم بوذا. وفي أحد البيانات الشهيرة المحفورة في الصخر والذي مازال أصله مقروءاً حتى اليوم أشار الإمبراطور إلى فتح كالينغا وعبر علناً عن «ندمه»، حيث قال «إنه من المؤلم جداً» بالنسبة له أن يفكر بتلك المذبحة، وصرح بأنه لن يسحب أبداً سيفه للحيارة على فتح، ولكنه «يتمنى من كل الكائنات الحية ألا تلجأ إلى العنف وأن تسيطر على النفس وتسلك مسلك التعقل واللفظ. ويعتبر أكبر فتح في نظر محبوب الآلهة (أسوكا) أن ينتصر المرء عن طريق الإشفاق». ولم يكتف بالتخلي عن الحرب هو بنفسه، بل عبر أيضاً عن رغبته في «ألا يفكر أبنائي وأحفادي بأن القيام بفتح جديد يستأهل العناء... بل أن يفكروا فقط بهذا الفتح الذي هو الانتصار عن طريق الرحمة والإشفاق، وهذا حسن من أجل هذا العالم ومن أجل العالم الآخر».

إن هذا المثال هو المثال الوحيد في كل تاريخ الإنسانية، وهو أن يتخلى فاتح منتصر في أوج قوته، ويملك القدرة التي تسمح له بمتابعة فتوحاته للأراضي، أن يتخلى مع ذلك عن الحرب وعن العنف ويتوجه إلى اللاعنف وإلى السلام.

إن هذا الدرس لعالمنا الحالي. سلطان إمبراطورية واسعة يتخلى علناً عن الحرب وعن العنف ويرتبط برسالة السلام واللاعنف. والتاريخ لا يذكر شيئاً عن وجود ملك مجاور أفاد من شفقة أسوكا وهاجمه بالسلاح، أو أن ثورة أو عصياناً حدث في إمبراطوريته أثناء حياته، بل على العكس من ذلك، فقد ران السلام على كل البلاد، ويبدو أن مقاطعات بعيدة خارج إمبراطوريته قبلت طوعية إدارته السليمة الطوية.

فالبوذية تهدف إلى خلق مجتمع يتخلى عن العراك المخرب في

سبيل السلطة، وحيث الهدوء والسلام يتغلب على النصر والهزيمة، وحيث يتم التخلي بحزم عن إعدام البريء، وحيث يتغلب احترام الإنسان الذي ينتصر على نفسه على احترام من يقهر الملايين من الناس عن طريق الحرب العسكرية والاقتصادية، وحيث يتم التغلب على البغضاء عن طريق المحبة وعلى الشر عن طريق الطيبة، وحيث لا تتسم عقول الناس بالعداوة والحسد وسوء النية والشر، وحيث العطف يصبح محرك الأفعال، وحيث كل الكائنات بما فيها أحقر شيء حي، تعامل بعدالة وتقدير ومحبة، وحيث تتجه الحياة في ظل السلام والصداقة والانسجام في عالم يسود فيه الاكتفاء المادي، تتجه الحياة نحو الغاية الأسمى والأنبل، وهي بلوغ الحقيقة العليا: النيرفانا.

نصوص مختارة

ذامّا - كاكابافاتّانا - سوتّا(*)

دولاب القانون

أول خطاب لبوذا

هكذا سمعت:

البالغ السعادة(**) الموجود في حديقة الغزلان في إيزيباتانا القريبة من بيناريس، توجه بخطابه إلى البهيكهو (الرهبان) الخمسة: ثمة ضدّان، أيها البهيكهو، ينبغي على الراهب تجنبهما. فما هما؟ التعلق بملذات الحواس، وذلك ما هو منحط وتافه وأرضي وخسيس وولد نتائج سيئة. والاستسلام لإماتة الجسد بكبت الرغائب والشهوات، وذلك صعب وخسيس وولد نتائج سيئة.

تجنبوا، أيها البهيكهو، هذين الضدين. فالتاغاتا(***) هو من يكتشف طريق الوسط الذي يعطي الرؤية والمعرفة ويقود إلى السلام والحكمة واليقظة والنيّانا.

فما هو، أيها البهيكهو، طريق الوسط هذا الذي اكتشفه

(*) سوتّا SUTTA يعني باللغة الباليّة خطاب أو حديث.

(**) البالغ السعادة يعني بوذا.

(***) التاغاتا: هو من وجد الحقيقة ويطلق على بوذا.

التأثغاتا والذي يعطي الرؤية والمعرفة ويقود إلى السلام والحكمة واليقظة والنيبانا؟ إنه الصراط الثماني النبيل الذي يعني: الفهم الصحيح (أو الرؤية الصحيحة)، والفكر الصحيح والكلام الصحيح والعمل الصحيح ووسيلة الحياة الصحيحة والمجهود الصحيح والانتباه الصحيح والتركيز الصحيح.

ذلك هو، أيها البهيكهو، طريق الوسط الذي اكتشفه التأثغاتا والذي يؤدي إلى الرؤية والمعرفة ويقود إلى السلام والحكمة واليقظة وإلى النيبانا.

وإليك أيها البهيكهو، الحقيقة النبيلة عن الدوكها، فالشيخوخة دوكها والمرض دوكها، والموت دوكها والعيش مع من لا تحب دوكها، والانفصال عن من تحب دوكها، وعدم الحصول على ما ترغب فيه دوكها. والخلاصة إن المجموعات الخمس للارتباط هي دوكها.

وإليك أيها البهيكهو، الحقيقة النبيلة عن سبب الدوكها:

إنه ذلك «العطش» (الرغبة، تانها) الذي ينتج إعادة الحياة وإعادة الصيرورة، والمرتبط بشره محموم، والذي يجد متعة جديدة تارة هنا وتارة هناك، أي هو العطش إلى لذائذ الحواس، العطش إلى الحياة والصيرورة، العطش إلى عدم الوجود (الانعدام الذاتي).

وإليك أيها البهيكهو، الحقيقة النبيلة عن انقطاع الدوكها.

إنه الانقطاع الكامل لهذا العطش، تركه، التخلي عنه، التخلص منه، الانفصال عنه.

وإليك أيها البهيكهو، الحقيقة النبيلة عن الصراط الذي يقود إلى انقطاع الدوكها.

إنه الصراط الثماني النبيل الذي يعني الفهم الصحيح (أو الرؤية الصحيحة)، والفكر الصحيح، والكلام الصحيح، والعمل الصحيح، ووسيلة الحياة الصحيحة، والمجهود الصحيح، والانتباه الصحيح، والتركيز الصحيح.

ميثا - سوتا

الحب العالمي

إليك ما يجب أن ينجزه من هو حكيم، من يسعى إلى الخير ويحصل على السلام.

ليكن مجتهداً، مستقيماً، مستقيماً تماماً، مطيعاً، لطيفاً، متواضعاً، مسروراً، راضياً بكل راحة. ألا يترك نفسه ينغمس في مشاكل الناس. ألا يحمل نفسه عبء الثروات، أن يسيطر على حواسه، أن يكون حكيماً بدون عجرفة ولا يرتبط بالعائلات.

ألا يقوم بعمل حقير يستهجنه الآخرون. أن تكون كل الكائنات سعيدة، وأن تكون فرحة وفي أمان.

أن تكون كل الكائنات سعيدة، سواء ما هو حي أو ضعيف أو قوي، أو طويل أو كبير أو وسط أو قصير أو صغير، مرئي وغير مرئي، قريب أو بعيد، مولود أو في سبيله إلى الولادة.

يجب ألا يخيب امرؤ أملاً لآخر أو يحتقر كائناً آخر مهما كان ذلك قليلاً، وألا يتمنى أحد الشر لأحد سواء بدافع من غضب أو كراهية.

هكذا تجازف الأم بحياتها لرعاية ابنها الوحيد وحمايته. وهكذا على المرء أن يحب كل شيء حي بذهن بلا حدود، وأن يحب

العالم بكامله، ما فوقه وما تحته وما حوله دون تحديد وبطبيعة
عظوفة لامتناهية.

وعلى المرء، سواء كان واقفاً أو ماشياً، جالساً أو مضطجعاً،
وطالما كان مستيقظاً أن يرعى هذه الفكرة، فهذا ما يسمى طريقة
الحياة المثلى.

إذا تخطى المرء عن النظرات الخاطئة وامتلك النظرة الداخلية
العميقة فإنه لن يعرف الولادة الثانية.

مانغالا - سوتا

المباركة أو النعمة

هكذا سمعت:

في إحدى المرات عندما كان البالغ السعادة يقيم في أحد
الأديرة ظهر أحد الآلهة وهو يملك جمالاً مشعاً، في حوالى منتصف
الليل، واقترب من البالغ السعادة وحياه باحترام، وبقي واقفاً إلى
جانبه. ثم وجه كلامه إلى بالغ السعادة قائلاً: «عديدون هم الآلهة
والناس الذين يتناقشون عن المباركات التي تمنح السعادة. من أجل
هؤلاء الذين يسعون وراء معرفة الأمور الحقيقية الخيرة أرجوك أن
تفضل بشرح النعم».

فقال بوذا مايلي:

ألا يجتمع المرء بالمجانين بل بالعقلاء. أن يقدم الاحترام
لأولئك الذين يستحقون أن يكونوا مكرمين - فتلك هي نعمة كبرى.

العيش في مكان يؤمن الكثير من المنافع. أن يملك مزية
حصوله على استحقاقات كاملة فيما سبق من العمر، وأن ينمي
مواهبه بالشكل المناسب - فتلك نعمة كبرى.

أن يكون مثقفاً بالعلوم والفنون، مهذباً ومتعلماً. يقول كلاماً
صحيحاً - فتلك نعمة كبرى.

أن يعتني بوالديه ويحسن معاملة زوجته وأولاده، ويتمم أعماله على الوجه الصحيح - فتلك نعمة كبرى.

أن يكون محسناً، يتصرف بشرف وأمانة، يعتني بعائلته. يقوم بأعمال صالحة - فتلك نعمة كبرى.

أن يبتعد عن الشر ويتخلى عن المسممات، أن يكون يقظاً في الخير - فتلك نعمة كبرى.

أن يتصرف بكرامة ولطف. أن يكون راضياً ومعتزلاً بالجميل. يستمع إلى القانون في الوقت المناسب - وتلك نعمة كبرى.

أن يكون صبوراً، محتفياً، يسعى وراء صحبة الرهبان (العقلاء). يتحدث عن القانون في المناسب - وتلك نعمة كبرى.

أن يكون متقشفاً ويعيش حياة نقية. يملك الرؤية الداخلية العميقة للحقائق النبيلة، يملك التفهم المطلق للنيبانا - وتلك نعمة كبرى.

إذا مسته مصائب الحياة يتماسك ويحافظ على عقل لا يضطرب ويبقى متحرراً من الحزن والتعلق والخوف - وتلك نعمة كبرى.

أولئك الذين يتبعون هذه المبادئ لن يُغلبوا أبداً، بل يمضون دائماً إلى السعادة، ومن أجل هؤلاء سيكون ذلك نعمة كبرى.

سيغالوفادا - سوتّا

الحديث إلى سيغالا عن الواجبات
(مختصر)

هكذا سمعت:

في اللحظة التي كان فيها البالغ السعادة في حديقة البامبو المفروزة للسناجيب، خرج في تلك اللحظة وفي وقت مبكر سيغالا ابن أحد أغنياء الملاكين من قريته بثيابه المبلة وشعره المبلى، وأخذ يحيي، ويداه مضمومتان، الجهات الست: الشرق والجنوب والغرب والشمال والسمت وسمت القدم (نظير السمت من الأسفل).

وبعد أن لبس بالغ السعادة ثيابه وأخذ قصعة الصدقات، اتجه نحو القرية ليحصل على غذائه، فرأى الشاب وهو يقدم تحياته فتحدث إليه بما يلي:

«لماذا نهضت باكراً وخرجت من القرية وبثياك المبلة وشعرك المبلى أخذت تقدم احتراماتك للجهات المختلفة؟» - «أيها السيد، إن أبي عند وفاته قال لي: يا ولدي يجب عليك أن تقدم تحياتك للجهات. وبما أنني أحترم وأبجل إرادة والدي فإنني آتي إلى هنا في ساعة مبكرة من كل صباح وأحيي الجهات». - «ليس على هذه الطريقة، أيها الشاب، ينبغي على المرء أن يحيي الجهات الست بحسب التعليم النبيل». - «وكيف إذن، أيها السيد، عليّ أن أفعل لأتبع التعليم النبيل؟

وسيكون حسناً أن يتفضل بالغ السعادة ويعرض عليّ المبدأ» - «إصغ إلي جيداً وفكر وسأحدث إليك» - «إذا كان الأمر كذلك فإنني مصغٍ إليك»، أجاب سيغالا.

وتكلم بالغ السعادة هكذا:

طالما أن الأعمال الشائنة الأربعة ألغيت عند التلميذ النبيل، وطالما أنه لا يرتكب أي شر من الأنواع الأربعة، وطالما أنه لا يبذر أمواله بالطرق الستة، فإن ذلك الذي يتجنب هذه الأشياء السيئة الأربعة عشر، ويعانق الاتجاهات الستة وينخرط في الصراط الذي يؤدي إلى النصر في العالمين، فإنه يربح هذا العالم والعالم الآخر. فعندما ينحل جسده بعد موته سيكون له بعث في أحد العوالم السماوية السعيدة.

فما هي الأعمال الأربعة المخزية التي حذفها؟ إنها تدمير الحياة: فهو عمل مخز، وكذلك السرقة والعلاقات الجنسية غير الشرعية والكذب. تلك هي الأعمال المخزية الأربعة التي حذفها.

وما هي الطرق الأربعة لتجنب ارتكاب الشر؟

بالانقياد إلى الرغبة يرتكب المرء الشر.

بالانقياد إلى الغضب يرتكب المرء الشر

بالانقياد إلى الجهل يرتكب المرء الشر

بالانقياد للخوف يرتكب المرء الشر.

وبما أن التلميذ ليس منقاداً للرغبة أو الغضب أو الجهل أو الخوف، فهو لا يرتكب الشر على هذه الطرق الأربعة.

وما هي الأشكال الستة لتبديد المال التي تخلص عنها التلميذ النبيل؟

إنها الاستسلام للمشروبات الميسكرة التي تسبب الجنون وعدم الانتباه. والتسكع في الشوارع ساعات وساعات ليس لها مناسبة.

الاستسلام للعب يسبب الشقاق. الاجتماع برفقة سيئة. التردد على المسرحيات، الاستسلام للكسل. هذه الأمور الستة تسبب تبديد الأموال.

وإليك النتائج الست الناجمة لأولئك الذين يستسلمون للمشروبات المسكرة: فهي تسبب الجنون وقلة التبصر، ضياع الثروة، وتزايد المشاجرات، والخضوع للأمراض، واكتساب السمعة السيئة، والفضائح المشينة. وتضاول الذكاء.

وإليك النتائج السيئة الست للتسكع في الشوارع في ساعات غير مناسبة. إن المرء يبقى بدون حراسة ولا حماية. زوجته وأولاده يتعرضون للأمر نفسه. عقاره يبقى بدون حماية. يغدو مشبوهاً إذا حدث شيء سيء. يتعرض لاتهامات خاطئة. يواجه الكثير من المصائب والنكبات.

وإليك النتائج الست بالنسبة لأولئك الذين يترددون على العروض المسرحية. فسيصبحون دائماً متلهفين يسألون: أين يوجد رقص، أين يوجد غناء، أين تُعزف الموسيقى، أين توجد ملهاة، أين توجد أوركسترا، أين نتسلى؟

وإليك النتائج الست السيئة للاعبي القمار: إذا كانوا من الرابحين فسيكسبون بغضاء الآخرين. وإذا كانوا خاسرين فسيأسفون. يخسرون ثرواتهم. كلامهم لا يصدق محققون من أصدقائهم وشركائهم. لا يستطيعون الزواج، لأن لاعب القمار لا يستطيع أن يعتني بزوجة.

وثمة ست نتائج سيئة لمن يعاشر رفاق السوء. سيكون أصدقائه ورفاقه من لاعبي القمار، والنهمين، والسكران، والنصابين، والغشاشين، واللصوص. وثمة ست نتائج سيئة بالنسبة لمن يستسلم للكسل: إنه لا يعمل قائلاً إن الطقس بارد جداً، أو حار جداً، إن الوقت متأخر، أو مبكر جداً، أو هو جائع جداً،

أو متخم جداً. وبما أنه يعيش هكذا فإنه يتخلى عن كثير من مسؤولياته بلا إنجاز، ويفقد الكثير من الفوائد. لا يحصل على شيء وما يملكه يتبدد.

ثمة أنواع أربعة من الأصدقاء الذين يجب أن يعتبروا أعداء: ذلك الذي يستغل صديقه. ذلك الذي لا يقدم خدمة إلا بالكلام. الذي يمالق. الذي يسبب الخراب.

وثمة أربعة طرق يلجأ إليها من يستغل صديقه بينما يجب أن يعتبر عدواً: يأخذ ثروته. ينتظر الكثير مقابل القليل. لا يقوم بواجبه إلا بدافع من الخوف. يغدو صديقاً بدافع من مصلحته الخاصة.

وثمة أربعة طرق يلجأ إليها من لا يقدم خدمة إلا بالكلام بينما يجب أن يعتبر عدواً: إنه يتعيش من الماضي. يتعيش من المستقبل. يهتم بما لافائدة منه. يتراجع وينكص عندما تُطلب منه خدمة مباشرة.

وثمة أربعة طرق يلجأ إليها من يتملق ويدهن بينما يجب أن يعتبر عدواً: يستحسن الأعمال السيئة. يستحسن الأعمال الحسنة. يمدح صديقه في حضوره. يفتابه ويذمه في غيابه.

وثمة أربعة طرق يلجأ إليها من يسبب الخراب بينما يجب أن يعتبر عدواً: يصاحب من يسكر، يرافقه في الليل، يرافقه إلى المسارح، يشاركه في لعب القمار.

* * *

وهناك أربعة أنواع من الأصدقاء الذين يطلق عليهم أصدقاء القلب الصادق: ذلك الذي يساعد. ذلك الذي يبقى على ما هو في السراء والضراء. ذلك الذي يقدم النصيحة الطيبة. ذلك الذي يملك التعاطف الحقيقي.

ثمة أربع طرائق للعمل كصديق ذي قلب صادق بالنسبة للذي يساعد: يحفظ صديقه من الطيش. يحمي ثروة صديقه. يكون ملجأه

عند الخوف. وفي حالة الضرورة يقدم له ضعفي ما هو بحاجة إليه. وثمة أربع طرائق للعمل كصديق ذي قلب صادق بالنسبة لذلك الذي يبقى على ما هو في السراء والضراء: يقول أسرار صديقه. يصون أسرار صديقه. في الضراء لا يتخلى عنه. يضحي بحياته نفسها لمصلحة صديقه.

وثمة أربع طرائق للعمل كصديق ذي قلب صادق بالنسبة لمن يقدم النصيحة الطيبة: يبعد صديقه عن عمل السوء. يشجعه على الخير. يفهمه ما أهمل الإصغاء إليه. يدلّه على الطريق القويم.

وثمة أربع طرائق للعمل كصديق ذي قلب صادق بالنسبة لمن يملك التعاطف الحقيقي: لا يشمت بصديقه في الضراء. يفرح له بالرخاء. يمنح النميّة عليه. يشجع من يمتدحونه.

* * *

واليكم كيف يحيي تلميذ نبيل الجهات الست. هذه الجهات الست يجب أن تمثل: الشرق: يمثل الأبوين. الجنوب: المعلمين. الغرب: العائلة والأولاد. الشمال: الأصدقاء والشركات. سمت القدم: الخدم. السمت: رجال الدين.

ثمة خمس طرائق أمام الولد يحترم فيها أبويه باعتبارهما الشرق: بما أنهم غنياً بي فأنا سأعتني بهما. أتمم واجباتي تجاههما. أحافظ على تقاليد العائلة. سأعمل بطريقة تصون أموالهما. سأقدم الصدقات من أجل والدي المتوفيين.

ثمة خمس طرائق أمام الوالدين الممثلين بالشرق لإظهار حسن النية وحسن الالتفات تجاه أولادهما الذين أكرمواهما كما رأينا: يبعدانهم عن الشر. يشجعانهم على الخير. يعلمانهم فناً (صناعة). يختاران لهم زوجة صالحة. يعطيانهم إرثهم في الوقت المناسب.

تلك هي الطرائق الخمس التي يكرم بها الأولاد أبويهما، ويظهر

بهما الأبوان عطفهما على الأولاد. وذلك هي الطريقة التي يبقى بها (الشرق) محمياً وآمناً.

هناك خمس طرائق يخدم بها التلميذ معلمه باعتباره الجنوب: أن ينهض أمامه. أن يخدمه. أن يصغي إليه بانتباه. أن يهتم به شخصياً. أن يدرس تعليمه بانتباه.

والمعلم الذي عومل على هذا الشكل يظهر لتلاميذه العطف والرعاية بتعليمهم أفضل تعليم وتهذيب. أن يعطيهم المعرفة الأفضل. أن يعلمهم الآداب والعلوم. أن يقدمهم لأصدقائه وشركائه. أن يسهر على سلامتهم في كل مكان.

وكذلك المعلمون الذين عوملوا من تلاميذهم هذه المعاملة يظهرون لهم عطفهم وحدهم بحيث يبقى (الجنوب) مصاناً وآمناً.

وثمة خمس طرائق تكرر بها الزوجة (الغرب) على يد زوجها: أن يكون حفيماً بها. ألا يحتقرها. أن يكون مخلصاً لها. يعترف لها بمساكنها. يقدم لها الحلوى.

والزوجة التي عوملت على هذا الشكل تظهر لزوجها العطف والرعاية تتم واجباتها على الوجه الأكمل. تكون طيبة مع الجيران. تكون ودية. تعتني بما يجلبه. تكون متنبهة ونشيطة في القيام بواجباتها.

وبما أن الزوجة أظهرت الرعاية للزوج الذي يعتني بها يكون (الغرب) مصاناً وآمناً.

وثمة خمس طرائق لخدمة الأصدقاء والشركاء باعتبارهم (الشمال). أن يكون كريماً، مع كلام حفي. يقدم الخدمة، بالتساوي، وباستقامة.

والأصدقاء والشركاء الذين عوملوا على هذه الشاكلة يظهرون لصديقهم بدورهم المودة: بأن يحموه عندما يكون غافلاً. أن يحموا ممتلكاته عندما يكون غافلاً. أن يحموه عند الخطر. ألا يتخلوا عنه عندما يكون في خطر. أن يكونوا متسامحين مع أولاده.

هكذا يُظهر الأصدقاء العطف والرعاية لمن أظهر لهم ذلك، بحيث يكون اتجاه (الشمال) محمياً وآمناً.

وهناك خمس طرائق يجب على رب العمل أو السيد أن يعامل بها خدمه ومستخدميه باعتبارهم سمت القدم: أن يعطيهم عملاً يتناسب مع طاقاتهم. أن يؤمن لهم الغذاء والأجر. أن يعتني بهم في حالة المرض. أن يقاسمهم في الأطعمة المختارة. أن يعطيهم الإجازات من وقت لآخر.

والخدم والمستخدمون الذين يعاملون هكذا يُظهرون لمعلمهم العطف والرعاية: بأن يستيقظوا قبله، أن يناموا بعده. ألا يأخذوا إلا ما يعطيه لهم. أن ينجزوا أعمالهم بأمانة. أن ينشروا سمعته الحسنة.

فإذا أظهر الخدم عطفهم ورعايتهم لمعلمهم على هذا الشكل، ذلك المعلم الذي عاملهم معاملة حسنة، فإن جهة (سمت القدم) سيكون محمياً وآمناً.

وهناك خمس طرائق بها يجب أن يُخدم رجال الدين باعتبارهم (السمت): بالأعمال الصالحة. بالكلام اللطيف. بالأفكار المحببة. ألا يغلق الباب في وجههم. بالقيام بمعاشهم وقضاء حاجاتهم.

ورجال الدين الذين عوملوا على هذا الشكل يُظهرون للمدنيين الرعاية والعطف: بردهم عن الشر. بتشجيعهم على الخير. بمحبتهم. أن يسمعوهم ما يجهلون. أن يفسروا لهم ما سمعوه. أن يدلّوهم على طريق المصائر العليا.

فإذا أظهر رجال الدين عطفهم على المدنيين الذين عاملوهم معاملة حسنة، فإن جهة (السمت) ستكون محمية وآمنة.

* * *

إن العاقل والفاضل واللطيف والموهوب بهبة الفهم والمتواضع والمطيع. هؤلاء من سيحصلون على المجد.

إن النشيط الفعّال الذي لا يتزعزع أمام المصائب، ذا الصفات الحميدة، الذكي. هذا من سيحصل على المجد.

إن المضياف الذي يصنع له الأصدقاء، السخي، غير الأناني، الذي له مرشد ومعلم ومشير، فهو من سيحصل على المجد.

إن الكرم والكلام المحبب، والخدمة التي تؤدي للآخرين، والتساوي مع الجميع وفي كل وقت، هي الصفات التي لا بد منها في العالم، كالمحرك الأساسي الذي يجعل الدولاب يمشي.

* * *

ماكاد البالغ السعادة يتكلم هكذا حتى صرخ سيغالا: «هذا حسن، أيها السيد، هذا ممتاز، أيها السيد. ذلك كأن ما كان مقلوباً عاد فاستقام. أو أن ما كان مخبأً كُشِف. كما لو أن الطريق استدل عليه من كان ضائعاً. أو كأن قنديلاً جُلب في الظلام لكي يرى من له عينان. هكذا عُرض المبدأ على يد البالغ السعادة. وأنا أيضاً أيها السيد سأخذ بوزا ملجأً وكذلك المذهب والجماعة. تفضل يا بالغ السعادة بقبولي تلميذاً مدنياً يتبعك منذ الآن وحتى آخر حياتي».

فاسالا - سوتا

من هو المنبوز؟

هكذا سمعت:

في الوقت الذي كان فيه البالغ السعادة مقيماً في دير أناثابينديكا في حديقة جيّتا في سافاتي، ارتدى البالغ السعادة ثيابه في الصباح وأخذ قصعته ودخل سافاتي في جولته للحصول على الصدقات. وفي اللحظة نفسها كانت نار الأضحية متقدة في بيت البراهمان أكجيكا ثارادقاجا وعطايا القربان مهيئة. وبعد أن مر بالغ السعادة من بيت إلى بيت وصل إلى منزل أكجيكا البراهمان. وعندما رأى البراهمان بالغ السعادة يقترب من بعيد صرخ به: «لاتتقدم يا حليق الرأس، قف، أيها البائس سامانا، قف أيها المنبوز». عندما سمع بالغ السعادة ذلك أجاب: «أيها البراهمان، هل تعرف من هو الباريا (المنبوز)، وما هي الأمور التي تجعل من أحد الناس منبوزاً؟» - «كلا أيها الموقر غوتاما، لا أعرف ذلك، وربما كان حسناً لو أخبرني الموقر غوتاما ذلك لأتمكن من التعرف على الباريا وعلى الأمور التي تجعل من أحد الناس باريا» - «إذن اصغ إلي أيها البراهمان، سأخبرك، فكن مصغياً منتبهاً» - «حسن أيها الموقر غوتاما» أجاب البراهمان، وأخذ بالغ السعادة بالحديث:

الرجل الكثير الغضب، الكثير البغضاء، الخبيث المنافق، الذي

إن النشيط الفعّال الذي لا يتزعزع أمام المصائب، ذا الصفات الحميدة، الذكي. هذا من سيحصل على المجد.

إن المضياف الذي يصنع له الأصدقاء، السخي، غير الأناني، الذي له مرشد ومعلم ومشير، فهو من سيحصل على المجد.

إن الكرم والكلام المحبب، والخدمة التي تؤدي للآخرين، والتساوي مع الجميع وفي كل وقت، هي الصفات التي لا بد منها في العالم، كالمحرك الأساسي الذي يجعل الدولاب يمشي.

* * *

ماكاد البالغ السعادة يتكلم هكذا حتى صرخ سيغالا: «هذا حسن، أيها السيد، هذا ممتاز، أيها السيد. ذلك كأن ما كان مقلوباً عاد فاستقام. أو أن ما كان مخبأً كُشِف. كما لو أن الطريق استدل عليه من كان ضائعاً. أو كأن قنديلاً جُلب في الظلام لكي يرى من له عينان. هكذا غرض المبدأ على يد البالغ السعادة. وأنا أيضاً أيها السيد سأأخذ بوذا ملجأً وكذلك المذهب والجماعة. تفضل يا بالغ السعادة بقبولي تلميذاً مدنياً يتبعك منذ الآن وحتى آخر حياتي».

فاسالا - سوتا

من هو المنبوذ؟

هكذا سمعت:

في الوقت الذي كان فيه البالغ السعادة مقيماً في دير أناثابينديكا في حديقة جيتا في ساقاتي، ارتدى البالغ السعادة ثيابه في الصباح وأخذ قصعته ودخل ساقاتي في جولته للحصول على الصدقات. وفي اللحظة نفسها كانت نار الأضحية متقدة في بيت البراهمان أكجيكا ثارادقاجا وعطايا القربان مهينة. وبعد أن مر بالغ السعادة من بيت إلى بيت وصل إلى منزل أكجيكا البراهمان. وعندما رأى البراهمان بالغ السعادة يقترب من بعيد صرخ به: «لاتتقدم يا حليق الرأس، قف، أيها البائس سامانا، قف أيها المنبوذ». عندما سمع بالغ السعادة ذلك أجاب: «أيها البراهمان، هل تعرف من هو الباريا (المنبوذ)، وما هي الأمور التي تجعل من أحد الناس منبوذاً؟» - «كلا أيها الموقر غوتاما، لا أعرف ذلك، وربما كان حسناً لو أخبرني الموقر غوتاما ذلك لأتمكن من التعرف على الباريا وعلى الأمور التي تجعل من أحد الناس باريا» - «إن اءم، م إلي أيها البراهمان، سأخبرك، فكن مصغياً منتبهاً» - «حسن أيها الموقر غوتاما» أجاب البراهمان، وأخذ بالغ السعادة بالحدث.

الرجل الكثير الغضب، الكثير البغضاء، الخبيث المنافق، الذي

تبنى وجهات نظر خاطئة وخادعة، مثل هذا المرء يجب أن يُعتبر باريا.

من يسبب الألم في هذا العالم للمخلوقات الحية، سواء وُلدت مرة أم مرتين(*)، الذي لا يملك في قلبه الشفقة والحنان - يجب أن يعتبر باريا.

من يدمر أو يحاصر القرى والمدن ويتصرف كعدو - يجب أن يعتبر باريا.

سواء في القرية أو في الغابة، من يملك عن طريق السرقة ما يخص الآخرين دون أن يعطوه ذلك - يجب أن يعتبر باريا.

من يأخذ ديناً، ثم يخدع دائئه بأن يقول له: «لست مديناً لك بشيء» - يجب أن يعتبر باريا

من يهاجم مسافراً لسلبه بدافع من طمع بشيء - يجب أن يعتبر باريا

الرجل الذي، من أجل مصلحته أو من أجل مصلحة آخرين أو من أجل الحصول على المال، يتقدم بشهادة زور - يجب أن يعتبر باريا.

من يأخذ نساء أقاربه أو أصدقائه اغتصاباً أو برضاهم - يجب أن يعتبر باريا.

من لا يريد أن يتكفل بنفقات أبيه وأمه عند شيخوختهما، وهو قادر على ذلك - يجب أن يعتبر باريا.

من يضرب أو يجرح بالكلام أمه أو أباه أو أخاه أو أخته أو حميه - يجب أن يعتبر باريا

(*) المخلوقات المولودة مرتين: هي تلك التي وُلدت من البيض. فالخروج من البيضة يعتبر الولادة الأولى، والخروج من خلفة البيضة يعتبر الولادة الثانية. وهنا يتوجه التلميح إلى الطيور والسلاحف والزواحف وغيرها التي تولد من البيضة. فالبيضة تُعتبر حاملة للحياة.

من يُستشار ويقدم نصائح خاطئة ويتآمر سراً - يجب أن يعتبر باريا

من يرتكب عملاً سيئاً آملاً بأن لا يعرف ذلك أحد، ويفعل الشر وهو مختبئ - يجب أن يعتبر باريا.

من يذهب إلى بيت سواه ويتناول فيه الطعام ولا يرد الضيافة - يجب أن يعتبر باريا

من يخدع بالبهتان براهمانياً أو ساماناً أو أي شحاذ آخر - يجب أن يعتبر باريا

من يرمي الكلام المُغضب ولا يقدم شيئاً لبراهماني أو سامانا قَدِمَ إليه وقت تناول الطعام - يجب أن يعتبر باريا.

من هو غارق في الجهل ولا يعطي أقل صدقة ويصيب، مع ذلك، الأعطيات القليلة - يجب أن يعتبر باريا.

من يتعجرف ويحتقر الآخرين عن كبرياء بينما هو نفسه محتقر - يجب أن يعتبر باريا.

من يسبب الغضب للآخرين وهو بخيل وذو رغبات سيئة، طماع ومحتمل، لا يخجل ولا يخاف من فعل الشر - يجب أن يعتبر باريا.

من يهين بوذا أو أحد تلاميذه أو راهباً تائهاً أو مديناً - يجب أن يعتبر باريا.

من ليس بالأراهمانت (القديس) ويدعي ذلك، فهو أكبر لص وأحط الباريا حقاً في كل العوالم بما في ذلك عالم البراهما.

هؤلاء الذين ذكرتهم هم حقاً باريا، فليس عن طريق الولادة يصبح المرء باريا، وليس عن طريق الولادة يكون المرء براهمان.

بأعمالهم يصبح الناس باريا وبها يصبحون براهمان.

اسمعوا هذا المثل: كان يوجد كاندالا (أي باريا أي منبوز) يسمى سوباكّا، وهو معروف باسم ماتانغا. هذا الماتانغا بلغ أعلى

المجد وأصعبه على البلوغ. وقد خدمه الكثيرون من النبلاء والبراهمان. ممتطياً العربة الإلهية، داخلاً في الطريق العالي الخالي من الغبار، تاركاً رغبات الأحاسيس، تمكن من بلوغ عالم براهما. مولده لم يمنعه من أن يولد ثانية في عالم براهما.

هنالك براهمانيون مولودون في عائلات منذورة عن طريق التعازيم بأن عليها أن تتبع القيدات (جمع قيداً وهي الكتب البراهمانية المقدسة)، ومع ذلك فإنهم انخرطوا على الدوام في أعمال السوء. فهم محتقرون في هذه الحياة نفسها، وفي الحياة التالية سيبعثون في حالة بائسة، فلم ينقذهم مولدهم لا من الملامة ولا من الجحيم.

إن المرء لا يصبح بارياً عن طريق الولادة، ولا يصبح براهمان عن طريق الولادة، بل عن طريق أعماله يصبح بارياً وعن طريق أعماله يصبح براهمان.

عندما سمع البراهمان أكجيكا ذلك صرخ: «هذا رائع أيها المبجل غوتاما هذا رائع. فكأنما استقام ماهو مقلوب، أو انكشف ماهو مخبأ أو استدل على الطريق من هو ضال، أو أتى بمصباح في الظلمة لمن لهم عيون قادرة على النظر. بذلك جعل المبجل غوتاما الحقيقة واضحة على أشكال عديدة. إنني ألجأ إلى المبجل غوتاما في «الذاماً» (المبدأ أو المذهب) وفي السانغا (نظام الرهبنة). فحبذا لو قبلني المبجل غوتاما كتلميذ مدني سيأخذهما ملجأين له من هذا اليوم وحتى نهاية حياته».

سابا سافا - سوتا

كل العراقيل

هكذا سمعت:

في إحدى المرات كان بالغ السعادة يقيم في دير أناثابينديكا في حديقة جيتا في ساثاتي. وقد تكلم هكذا:

«إن الطريقة التي تُقهر فيها كل المصاعب أيها الرهبان سأحدثكم عنها فأصغوا إلي وفكروا جيداً وها أنذا أتكلم» - «نعم أيها السيد» أجاب هؤلاء الرهبان.

وتحدث بالغ السعادة بما يلي:

إن تدمير العراقيل، أيها الرهبان، سأقول كيف يتم لمن يعرف ولمن يرى لا لمن لايعرف ومن لايرى. فما الذي يجب أن يعرفه، أيها الرهبان، وما الذي يجب أن يراه من يدمر العراقيل؟ التفكير الحكيم والتفكير غير الحكيم.

فمن يفكر بلا حكمة، أيها الرهبان، تظهر له العقبات التي لا تُرى، وتزداد العقبات الموجودة في الحاضر. أما من يفكر بحكمة، أيها الرهبان، فإن العقبات التي لا تُرى لا تظهر، وتتضاءل العقبات الموجودة في الحاضر.

وثمة، أيها الرهبان، العقبات التي يجب قهرها عن طريق

التبصر (التعرف بروية وحكمة). وهناك العقبات التي يجب قهرها عن طريق السيطرة عليها ومراقبتها. وهناك العقبات التي يجب التغلب عليها عن طريق الممارسة الصحيحة. وهناك العقبات التي يجب التغلب عليها عن طريق تحملها والتعايش معها. وهناك الصعوبات التي يجب قهرها بتجنبها. وهناك العراقيل التي يجب التغلب عليها بإبعادها. وهناك العراقيل التي يجب التغلب عليها عن طريق التنمية الروحانية.

فما هي العقبات التي يجب التغلب عليها، أيها الرهبان، عن طريق التبصر؟

إليكم، أيها الرهبان، الرجل العادي غير المتعلم الذي لا يرى الكائنات النبيلة، ولا يعرف المذهب النبيل، ولا يتبع المذهب النبيل، والذي لا يرى العقلاء، ولا يعرف مذهب العقلاء، ولا يتبع مذهب العقلاء، ولا يعرف الأمور التي يجب أن يفكر بها، ولا الأمور التي يجب ألا يفكر بها. فهو يفكر بما يجب ألا يفكر به، ولا يفكر بما يجب أن يفكر به.

وما هي، أيها الرهبان، الأمور التي يجب ألا يفكر بها بينما هو يفعل.

فإذا كان عن طريق التفكير ببعض الأمور، أيها الرهبان، تظهر عقبة الجهل غير المرئية وتتزايد عقبة الجهل الموجودة. وتظهر عقبة الرغبة بالحياة غير المرئية وتنمو عقبة الرغبة بالحياة الموجودة. فإن هذه الأمور التي لا يجب التفكير بها هي التي يفكر بها.

وما هي الأمور، التي يجب أن يفكر بها ولكنه لا يفعل؟

فإذا كان عن طريق التفكير ببعض الأمور، أيها الرهبان، لا تظهر عقبة الرغبة الحسية غير المرئية وتتضاءل عقبة الرغبة الحسية الموجودة. كما لا تظهر عقبة الجهل غير المرئية وتتضاءل عقبة الرغبة بالحياة الموجودة... فإن هذه الأمور التي يجب التفكير بها هي التي لا يفكر بها.

وهكذا فإنه بنتيجة واقع أن التفكير بالأمور التي لا يجب التفكير بها، وبإهماله التفكير بالأمور التي يجب أن يفكر بها، فإن العقبات غير المرئية تظهر، والعقبات الموجودة حالياً تنمو وتزداد.

وهكذا فهو يفكر بلا حكمة: «هل وجدت في الماضي؟»، «ألم أكن موجوداً في الماضي؟»، «ماذا كنت في الماضي؟»، «كيف كنت في الماضي؟». «وإذا كنت موجوداً في الماضي فماذا كنت في الماضي الأسبق؟». «هل سأكون موجوداً في المستقبل؟»، «ألن أكون موجوداً في المستقبل؟»، «ماذا سأكون في المستقبل؟»، «كيف سأكون في الأبعد؟». كذلك يجعله الحاضر مرتبكاً حائراً في نفسه: «هل أنا موجود؟»، «هل أنا غير موجود؟»، «من أنا؟»، «كيف أكون؟»، «هذا الكائن من أين أتى وإلى أين هو غدا؟».

وهكذا فإنه بتفكيره غير الحكيم تنبثق فيه إحدى النظرات الخاطئة: «لي روح»، هذه النظرة تولد فيه حقيقة وثابتة. «ليس لي روح»، هذه النظرة الخاطئة تولد فيه حقيقة وثابتة. «عن طريق الروح أعرف الروح»، هذه النظرة الخاطئة تولد فيه حقيقة وحازمة. «عن طريق الروح أعرف اللاروح»، هذه النظرة الخاطئة الأخرى تنبثق أيضاً فيه: «هذه الروح التي هي روحي، معبرة عن نفسها وشاعرة، تتلقى هنا أو هناك نتيجة أعمالها الصالحة والطالحة، وهذه الروح التي هي روحي، الدائمة الثابتة الخالدة ذات الطبيعة التي لا تتغير، تبقى هكذا إلى الأبد».

هذا، أيها الرهبان، ما يسمى تخيلات، غابة آراء، صحراء آراء، ضلال آراء، اضطراب آراء، روابط آراء. والإنسان المرتبط بروابط الآراء هذه، أيها الرهبان، الرجل العادي غير المتعلم، ليس متحرراً من الولادة والشيخوخة والموت والأحزان والنواح والآلام والمتاعب العقلية وسكرات الموت. قلت لكم إنه غير متحرر من الآلام.

ولكن الحكيم العاقل، أيها الرهبان، التلميذ النبيل الذي يرى الكائنات النبيلة، والمثقف بالمذهب النبيل، والماشي في طريق

المذهب النبيل، الذي يرى الحكماء، ويتعلم مذهب الحكماء ويمشي في طريق مذهب الحكماء، يعرف الأشياء التي يجب أن يفكر بها والأمور التي لا يجب أن يفكر بها.

إذن، إذا عرف الأمور التي يجب أن يفكر بها والأمور التي يجب ألا يفكر بها، فإنه لا يفكر بالأمور التي لا ينبغي التفكير بها، ويفكر بالأمور التي يجب أن تكون محل تفكيره.

وما هي أيها الرهبان الأمور التي يجب ألا يفكر بها وهو لا يفعل؟

فإذا كان عن طريق التفكير ببعض الأمور، أيها الرهبان، تظهر عقبة الرغبة الحسية غير المرئية وتنمو عقبة الرغبة الحسية الموجودة حالياً. وتظهر عقبة الرغبة بالحياة غير المرئية وتتزايد الرغبة بالحياة الموجودة. وتظهر عقبة الجهل غير المرئية وتنمو الرغبة بالجهل الموجودة. فبهذه الأمور التي لا ينبغي التفكير بها هو لا يفكر.

وما هي، أيها الرهبان، الأمور التي يجب التفكير بها وهو يفعل؟

إذا كان عن طريق التفكير ببعض الأمور، أيها الرهبان، لا تظهر عقبة الرغبة الحسية غير المرئية بينما تتضاءل عقبة الرغبة الحسية الموجودة. ولا تظهر عقبة الرغبة بالحياة غير المرئية وتتضاءل عقبة الرغبة بالحياة الموجودة، ولا تظهر عقبة الرغبة بالجهل غير المرئية، وتتضاءل عقبة الرغبة بالجهل الموجودة. فإن هذه الأمور التي ينبغي عليه التفكير بها يفكر بها.

وهكذا من واقع ألا يفكر بالأمور التي لا يجب التفكير بها، فإن العقبات غير المرئية لا تظهر فيه، بينما تتضاءل العقبات الموجودة في الحاضر.

وهو على هذا الأساس يفكر بحكمة: «هذا هو الأكم». وبحكمة

يفكر: «وهذا هو سبب الأكم». وبحكمة يفكر «وهذا هو انقطاع الأكم». وبحكمة يفكر: «وهذا هو الصراط الذي يقود إلى انقطاع الأكم».

فإذا فكر هكذا فإن ثلاث روابط تنحل فيه: هي الأنا، والشك، والاعتقاد بجدوى الطقوس والشعائر.

تلك هي، أيها الرهبان، العوائق التي يجب هزيمتها بالتبصر. وما هي، أيها الرهبان، العوائق التي يجب الانتصار عليها بواسطة مراقبتها والسيطرة عليها؟

هاكم، أيها الرهبان: الراهب الذي ينظر إلى الأمور بحكمة يبقى محافظاً على رقابتها بملكة الرؤية. بينما، أيها الرهبان، ذلك الراهب الذي لا يحافظ على مراقبتها بملكة الرؤية فإن العقبات الضاغطة والحارقة تظهر فيه. أما الذي بقي محافظاً على المراقبة بملكة الرؤية فإن هذه العوائق الضاغطة والحارقة لا تظهر فيه.

فإذا نظر إلى الأمور بحكمة فإنه يبقى محافظاً على السيطرة عليها بملكة السمع. بينما، أيها الرهبان، ذلك الراهب الذي لا يحافظ على السيطرة على ملكة السمع تظهر فيه العقبات الضاغطة والحارقة. أما من بقي محافظاً على السيطرة على ملكة السمع فإن العقبات الضاغطة والحارقة لا تظهر فيه.

وإذا نظر إلى الأمور بحكمة فإنه يبقى محتفظاً بالسيطرة على ملكة الشم. بينما، أيها الرهبان، ذلك الراهب الذي لا يبقى محتفظاً بالسيطرة على ملكة الشم تظهر فيه العقبات الضاغطة والحارقة. أما من بقي محافظاً على السيطرة على ملكة الشم فإن العقبات الضاغطة والحارقة لا تظهر فيه.

(وكذلك هو الأمر في السيطرة على ملكة التذوق وعلى الملكات العقلية والحسية).

تلك هي، أيها الرهبان، العوائق التي يجب الانتصار عليها عن طريق المراقبة والسيطرة.

فما هي، أيها الرهبان، العوائق التي يجب الانتصار عليها عن طريق الممارسة الصحيحة؟

ها هو ذا الأمر، أيها الرهبان. إن الراهب الذي يتأمل سلوكه بحكمة يستعمل رداءه لغاية واحدة هي أن يحميه من البرد والحر ومن النُعرة (وهي ذبابة كبيرة لاسعة) والبعوض والرياح والشمس والأفاعي. أي بغية ستر عريه.

إذا تأمل سلوكه بحكمة فإنه يتناول غذاءه لا عن لذة وليس للمبالغة بالعافية، ولا للتفنن ولا للجمال، بل ليبقي على حياته وحسب، لإلغاء الألم، للمحافظة على حياة نبيلة، مفكراً: «بذلك أضع نهاية للألم القديم ولن أتسبب بألم جديد، وبذلك تبقى حياتي مستقيمة وسعيدة».

وإذا تأمل سلوكه بحكمة فإنه يستعمل ما يوجد من أدوية لدرء المرض لغاية واحدة هي أن تنقطع مشاعر الوهن القائمة، وأن يحافظ على صحته.

أما الذي لا يمارس السلوك (الصحيح)، أيها الرهبان، فإن المصاعب الضاغطة والحارقة ستظهر عنده، ولا تظهر عند من يمارس السلوك الصحيح.

تلك هي، أيها الرهبان، المصاعب التي يجب الانتصار عليها بالسلوك الصحيح.

فما هي، أيها الرهبان، المصاعب التي يجب الانتصار عليها بالسلوك الصحيح.

فما هي، أيها الرهبان، المصاعب التي يجب الانتصار عليها بالتجلد والتعايش معها؟

إليك، أيها الرهبان، راهباً يتأمل الأمور بحكمة، يعاني (بصبر) من القر والحر والجوع والعطش ولسع النُعرة والبعوض ومن الرياح والشمس والأفاعي، ومن الأحاديث المغتابة العدوانية السيئة النية.

والأحاسيس الجسدية التي تليها مؤلمة واخزة متعبة غير مستساغة غير سارة مميتة. وهو يتحمل كل ذلك بصبر.

بينما، أيها الرهبان، ثمة راهب آخر غير متجلد، فتظهر فيه المصاعب الضاغطة الحارقة. بينما ذلك الذي تجلد وتحمل لا تظهر فيه هذه المصاعب الضاغطة الحارقة.

تلكم هي، أيها الرهبان، المصاعب والعقبات التي يجب التغلب عليها بالتجلد والتعايش والصبر.

فما هي، أيها الرهبان، العوائق التي يجب الانتصار عليها بتجنبها؟

إليك، أيها الرهبان، راهباً يتأمل الأمور بحكمة. فهو يتجنب الفيل الهائج، ويتجنب الحصان الهائج، ويتجنب الثور الهائج، والكلب الهائج، والثعبان، وجذوع الأشجار المقطوعة، والأدغال الشوكية والمستنقعات والأجراف وبؤر الأوحال والبالوعات. يتجنب الجلوس على مقاعد مخلوعة، وزيارة الأماكن السيئة، وأن يرتبط بأصدقاء لا يستحقون الصداقة، وكل ما يعتبره العقلاء موضعاً للوم. فبتأمل الحكيم مثل هذه المقاعد المخلوعة، وتلك الأماكن السيئة وتلكم الأصدقاء السيئين، فإنه يتجنب كل ذلك بحكمة.

أما ما يتعلق، أيها الرهبان، بمن لا يتجنب ذلك، فإن المصاعب الضاغطة والحارقة تظهر عنده. بينما من يتجنبها لا تظهر لديه هذه المصاعب الضاغطة الحارقة.

تلكم هي، أيها الرهبان، العوائق التي يجب الانتصار عليها بتجنبها.

فما هي، أيها الرهبان، العوائق التي يجب الانتصار عليها بإزاحتها؟

إليك، أيها الرهبان، راهباً يتأمل بحكمة. فإذا برزت لديه فكرة حسية فإنه لا يتحملها، بل يزيحها، يرفضها، يبعدها، لا يجعلها تولد.

وإذا برزت لديه فكرة عدوانية فإنه لايتحملها، بل يزيحها، يرفضها، يبعدها، لايجعلها تولد. وإذا برزت لديه فكرة بغضاء فإنه لايتحملها، بل يزيحها، يرفضها، يبعدها، لايجعلها تولد. كل الأمور السيئة التي تبرز فيه فإنه لايتحملها، بل يزيحها، يرفضها، يبعدها، لايجعلها تولد.

أما الذي لايزيحها، أيها الرهبان، فإن المصاعب الضاغطة الحارقة تظهر له، بينما هي لاتظهر عند من أزاحها ورفضها ولم يجعلها تولد.

تلكم هي، أيها الرهبان، العقبات التي يجب الانتصار عليها بإزاحتها.

فما هي، أيها الرهبان، العقبات التي يجب الانتصار عليها بالتنمية الروحانية؟

إليك، أيها الرهبان، راهباً يتأمل بحكمة. إنه يطور وينمي إشراقة الانتباه التي يرافقها عدم الارتباط (الانفصال) وغياب الرغبة والانقطاع، وتقود إلى التخلي.

ومن يتأمل بحكمة ينمي إشراقة فحص القانون، التي يرافقها الانفصال (عدم التعلق بشيء)، وغياب الرغبة، والانقطاع، وتقود إلى التخلي.

ومن يتأمل بحكمة ينمي ويطور عامل إشراقة النشاط، التي يرافقها الانفصال (عدم التعلق بشيء) وغياب الرغبة والانقطاع، وتقود إلى التخلي.

ومن يتأمل بحكمة ينمي ويطور عامل إشراقة الفرح التي يرافقها الانفصال وغياب الرغبة والانقطاع، وتقود إلى التخلي.

ومن يتأمل بحكمة ينمي ويطور عامل إشراقة الهدوء التي يرافقها الانفصال وغياب الرغبة والانقطاع، وتقود إلى التخلي.

ومن يتأمل بحكمة ينمي ويطور إشراقة التركيز التي يرافقها الانفصال وغياب الرغبة والانقطاع، وتقود إلى التخلي.

ومن يتأمل بحكمة ينمي ويطور عامل إشراقة اللامبالاة التي يرافقها الانفصال وغياب الرغبة والانقطاع، وتقود إلى التخلي.

إذن، أيها الرهبان، إن من لاينمي ويطور عامل الإشراقة الروحانية فإن عوائق ضاغطة وحارقة تظهر عنده، بينما ذلك الذي يطور ذلك لاتظهر عنده العوائق المذكورة.

تلك هي، أيها الرهبان، العوائق أو المصاعب أو العراقيل التي يجب الانتصار عليها عن طريق التطوير الروحاني.

فيا أيها الرهبان، إذا ما هُزمت العوائق التي يجب أن تهزم عن طريق التبصر باللجوء إلى التبصر، وإذا ما هُزمت العوائق التي يجب أن تهزم عن طريق المراقبة والسيطرة باللجوء إلى المراقبة والسيطرة عليها، وإذا ما هُزمت العوائق التي يجب أن تهزم عن طريق السلوك الصحيح باللجوء إلى السلوك الصحيح، وإذا ما هُزمت العوائق التي يجب أن تهزم عن طريق الصبر والمعايشة معها باللجوء إلى الصبر والمعايشة، وإذا ما هُزمت العوائق التي يجب أن تهزم عن طريق تجنبها باللجوء إلى تجنبها، وإذا ما هُزمت العوائق التي يجب أن تهزم عن طريق إزاحتها باللجوء إلى إزاحتها، وإذا ما هُزمت العوائق التي يجب أن تهزم عن طريق التنمية الروحانية باللجوء إلى التنمية الروحانية، فسيوجد الراهب المتحرر من كل العقبات والمصاعب والعراقيل. فقد دمر عطش الرغبة، وحل الارتباطات، وعن طريق التفهم السليم للمقاييس الخاطئة، فإنه، أيها الرهبان، وضع نهاية للألم.

هكذا تكلم بالغ السعادة، وتمتع الرهبان بكلامه وسعدوا.

واتثوباما - سوتا

حكمة القماش

هكذا سمعت:

في إحدى المرات كان بالغ السعادة يقيم في دير أناثابينديكا في حديقة جيتا في ساقاتي.

فتحدث بالغ السعادة بما يلي:

أيها الرهبان: كما أن قطعة من القماش قذرة وملطخة تبقى ذات لون قذر، تبقى ذات لون كدر، رغم أن الصباغ غمرها في أي لون، سواء كان أزرق أو أصفر أو أحمر أو برتقالي بسبب أنها كانت منذ الأصل قذرة وملطخة، كذلك هو الحال، أيها الرهبان، مع الفكر القذر، فإنه لا بد أن يلقي نتائج بائسة.

وكما أن قطعة من القماش النظيف الجديد تبقى، أيها الرهبان، ذات لون نظيف، ذات لون جديد، بعد أن يغمرها الصباغ بأي لون، أزرق، أو أصفر أو أحمر أو برتقالي بسبب أنها منذ الأصل جديدة ونظيفة، وكذلك هو الحال، أيها الرهبان، مع الفكر النقي فإنه لا بد أن يلقي نتائج سعيدة.

فما هي، أيها الرهبان، قذارات الفكر؟

إن الجشع والرغبة هما قذارات الفكر. الخبث هو قذارة فكرية.

الغضب قذارة فكرية. سوء النية قذارة فكرية. النفاق قذارة فكرية. الاغتياب قذارة فكرية. الحسد قذارة فكرية. الخداع قذارة فكرية. التحايل قذارة فكرية. العناد قذارة فكرية. التهور قذارة فكرية. الشبهة قذارة فكرية. الغطرسة قذارة فكرية. الإدعاء قذارة فكرية. الإهمال قذارة فكرية.

إذن، أيها الرهبان، عندما يعرف الراهب أن الجشع والرغبة هما قذارتان فكريتان فإنه يرفضهما. وعندما يعرف أن الخبث قذارة فكرية فإنه يرفضه. وعندما يعرف أن الغضب قذارة فكرية يرفضه. وعندما يعرف أن سوء النية قذارة فكرية يرفضها. وعندما يعرف أن النفاق قذارة فكرية يرفضه. وعندما يعرف أن الاغتياب قذارة فكرية يرفضه. وعندما يعرف أن التحايل قذارة فكرية يرفضه. وعندما يعرف أن العناد قذارة فكرية يرفضه، وعندما يعرف أن التهور قذارة فكرية يرفضه. وعندما يعرف أن الشبهة قذارة فكرية يرفضها. وعندما يعرف أن الغطرسة قذارة فكرية يرفضها. وعندما يعرف أن الادعاء قذارة فكرية يرفضه. وعندما يعرف أن الإهمال قذارة فكرية يرفضه.

وعلى أساس موقف هذا الراهب، أيها الرهبان، فإن معرفة أن الجشع والرغبة هما قذارتان فكريتان تستدعي أن تكونا مرفوضتان.

ومعرفة أن الخبث قذارة فكرية تستدعي رفضه.

(... وهكذا حتى يستنفذ رفض كل هذه القذارات الفكرية).

* * *

إذن، أيها الرهبان، هذا الراهب الذي يملك مثل هذه الأخلاق، مثل هذه الصفات، مثل هذه الحكمة، يأكل الطعام بدون حبة سوداء

أو ثريد أو كاري (نوع من البهارات الهندية)، دون أن يحزن فؤاده (فكره). ومثل ذلك، أيها الرهبان، حال قماش قدر وملطخ، إذا غُسل بماء نظيف يغدو نقياً ونظيفاً. أو كالذهب الذي يمر في مصهر فيغدو نقياً لامعاً. وكذا الأمر، أيها الرهبان، مع هذا الراهب الذي يملك أخلاقاً كهذه، وصفات كهذه، وحكمة كهذه، فإنه يأكل الطعام بدون حبة سوداء ولا ثريد ولا كاري دون أن يحزن (فكره).

إنه يبقى مضيئاً فكرُ حسن النية في اتجاه (الفضاء)، ثم في اتجاه ثان، ثم في اتجاه ثالث ورابع. وإلى فوق وإلى تحت ومن خلال، وإلى كل مكان في العالم الواسع، يبقى مضيئاً فكرُ حسن النية عريضاً عميقاً بدون حدود، بدون كراهية ومتحرراً من العداوة والبغضاء.

يبقى مضيئاً فكرُ التعاطف الفرح في اتجاه (من الفضاء)، ثم في اتجاه ثان وثالث ورابع وإلى فوق وإلى تحت ومن خلال، وإلى كل مكان في العالم الواسع، يبقى مضيئاً فكرُ التعاطف الفرح عريضاً عميقاً بدون حدود، بدون كراهية ومتحرراً من العداوة والبغضاء.

يبقى مضيئاً فكرُ اللامبالاة في اتجاه (من الفضاء)، ثم في اتجاه ثان وثالث ورابع وإلى فوق وإلى تحت ومن خلال، وإلى كل مكان في العالم الواسع، يبقى مضيئاً فكرُ اللامبالاة بالعرض والعمق وبدون حدود، بدون كراهية ومتحرراً من العداوة والبغضاء.

عندئذ يفهم مايلي: «ذلك ماهو موجود، هناك تضاؤل، هناك إنجاز، هناك انعتاق لاحق من هذه الحالة المتيقظة». وعندما يدرك ذلك، وعندما يرى ذلك، يتحرر الفكر من عائق الرغبة الحسية، يتحرر الفكر من عائق الرغبة الحياة، يتحرر الفكر من عائق الجهل. وعندما يتحرر يأتي الوعي «بأن التحرر هنا»، ويعرف «أن الولادة نُمرت، والحياة النبيلة عيشت، وما ينبغي أن يُنجز أنجز، ولم يبق شيء بدون إنجاز».

إن هذا الراهب، أيها الرهبان، يسمى الراهب الذي اغتسل في الحمام الداخلي.

في أثناء هذا الوقت كان البراهمان (سانداريكا بهارادقاجا) جالساً بقرب بالغ السعادة، فالتفت عندئذ نحو بالغ السعادة وقال: «وهل سيذهب المبجل غوتاما ليتغتسل في نهر باهوكا؟».

«ولم الباهوكا، أيها البراهمان؟ ماذا سيفعل الباهوكا؟».

«لأن الباهوكا، أيها المبجل غوتاما، يعتبر مقدساً عند عدد كبير من الكائنات، لأن الباهوكا، أيها المبجل غوتاما، يعتبر مطهراً عند عدد كبير من الكائنات. وإن عدداً كبيراً من الكائنات تغتسل من أعمالها السيئة في الباهوكا».

عندئذ وجّه بالغ السعادة إلى البراهمان سانداريكا بهارادقاجا هذا المقطع من الأشعار:

في الباهوكا وفي الآديكافا،

في الغايا وفي السانداريكا،

في الباياغا وفي الساراساتي،

وفي مجرى الباهوماتي،

واحد من المجانين ذو أعمال شريرة

رغم أنه اغتسل في هذه الأنهار لم يتطهر.

فما الذي يفعل السانداريكا

أو الباياغا أو الباهوكا؟

إنها لا تطهر الرجل المبيغض

الذي ارتكب أعمالاً شريرة.

بالنسبة للرجل الطاهر، الزمن دائماً هو زمن الفاغو.

بالنسبة للرجل الطاهر كل يوم مقدس.

بالنسبة للرجل الطاهر ويعمل بطريقة طاهرة
له دائماً الرعاية.

أيها البراهمان، اغتسل أنت هنا،

انشر فكرة السلام بين كل الكائنات،

إذا لم تتفوه بكلام خاطئ،

إذا لم تسبب ضرراً للحياة،

إذا لم تأخذ ما لم يُعط لك،

إذا كنت تملك الثقة ولا تضمر الطمع،

فما الذي ستفعله في الغايا؟

إن بئرك أيضاً هو الغايا.

ما إن قيل ذلك حتى قال البراهمان سانداريكا بهارادقاجا لبالغ
السعادة:

«رائع، أيها المبجل غوتاما، رائع أيها المبجل غوتاما. إن ذلك
حقاً، أيها المبجل غوتاما، كما لو أنك أقمت ما هو مقلوب، وكشفت
عما هو خفي، وأبنت الطريق للتائه الضال، أو أنك أتيت بمصباح في
الظلام وأنت تفكر: فليز الأشكال من لهم عيون. وإلى ذلك فإن
المبجل غوتاما جعل المبدأ (المذهب) واضحاً على عدة أشكال.
وهاأنذا ألجأ إلى المبجل غوتاما، إلى المبدأ، إلى نظام الرهينة
(السانغا). فهل أستطيع أن أقبل من المبجل غوتاما، هل أستطيع أن
أحصل على سيامة الراهب؟».

وقد تم قبول البراهمان سانداريكا بهارادقاجا من بالغ
السعادة، وحصل على سيامة الراهب وأصبح راهباً.

بعد سيامته بوقت قليل وعندما أصبح المبجل بهارادقاجا
وحيداً، منزوياً عن الناس، ساهراً، متيقظاً، متحمساً، مصمماً، وصل
بسرعة لهذا الهدف الذي من أجل تحقيقه والوصول إليه يترك أبناء
العائلات النبيلة بيوتهم ليعيشوا بدون بيت... هذا الهدف للحياة
القدسية الذي لا مثيل له حققه في هذه الحياة نفسها وفهم أن:

«الولادة دُمُرت، والحياة النبيلة عيشت، وما يجب إنجازه أُنجز،
ولم يبق شيء لإنجازه». وبذلك أصبح المبجل بهارادقاجا في عداد
الأراහانت.



إليكم هذا الدفاع عن البوذية صممه الراهب المتبحر راهولا، الذي نشأ في سيلان وتلقى البوذية الأصلية فيها، ثم أثبعتها بدراسات له في الهند عن البوذية الكبرى التي انتشرت في الصين واليابان، ثم بدراسات أخرى في قسم الدراسات البوذية في باريس، وهذا ما يجعل من كتابه هذا مرجعاً أصيلاً لفهم بوذا والبوذية.

يقول راهولا في «مدخل» كتابه:

نشاهد اليوم في العالم كله اهتماماً متزايداً بالبوذية. ويمكننا أن نأسف لأن معظم المؤلفات التي ظهرت في الغرب عالجت الموضوع بأفكار مسبقة مأخوذة من ديانات أخرى. وقد حاولت في هذا الكتاب الصغير أن أعطي عرضاً ملخصاً ودقيقاً ومباشراً حرصت أن أستمدّه من كلام بوذا نفسه، كما نُقِلَ إلينا في النصوص القديمة الأصلية، ولم ألجأ إلى الكتابات المتأخرة إلا في بعض الأماكن.

في هذا العمل واجهت صعوبات مختلفة، إذ حاولت أن أتجنب الإفراط في التقنية والإفراط في الابتذال والتعميم في الوقت نفسه، وأن أقدم للقارئ عرضاً مفهوماً يمكنه أن يفيد منه دون أن أضحي مع ذلك بشيء من جوهر خطابات بوذا أو من شكلها. ومع محافظتي على اتباع النصوص الأصلية على أكثر ما يمكن من القرب، فقد جهدت أن أجعل ترجماتي لها ميسرة ومقروءة.

بوذا